تفسير
سورة المجادلة
دراسة تحليلية

إعداد
د / سهام فاروق محمد عمر
مدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يحمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الرب الصمد الواحد، الحي القيوم الذي لايموت، ذو الجلال والإكرام، والمتكلم بالقرآن، والمنعم على الإنسان بالإيمان، والمرسل رسوله بالبيان، محمداً ﷺ أرسله بكتابه المبين، الفارق بين الشك واليقين، الذي أعجزت الفصحاء معارضته، وأخرست البلغاء مشاكلته، فلا يأتون بمثله، جعل أمثاله عبراً لمن تدبرها، وأوامره هدى لمن استبصرها، وشرح فيه واجبات الأحكام، وفرق فيه بين الحلال والحرام.

وصل اللهم على سيدنا محمد عبد الله ورسوله، وخير خلقه، أرسله الله هادياً ومبشراً ونذيراً، وصل اللهم على آله وصحبه، وكل من اهتدى بهديه إلى يوم الدين.. أما بعد:

فإن خير ما صرفت فيه الجهود، واشتغل به العلماء تعليماً وتفسيراً وتفهماً ودراسة واستنباطاً كتاب الله الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[1].

فهو كتاب الهداية، ودستور أمة هي خير أمة أخرجت للناس، تكفل رب العزة بحفظه فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[2].

وإن من وسائل حفظ كتاب الله العزيز اعتناء العلماء في كل عصر ومصر، قديماً وحديثاً، بتفسير آياته، والسهر على فهمه، والعمل على إيضاح مشكله، وبيان محكمه ومتشابهه، وكشف أسراره وعجائبه، وحصر آيات أحكامه لمعرفة الحلال والحرام، واستنباط حكم الشرع من نصوصه الكريمة.

ولقد كانت اليد الطولى في تفسير آيات كتاب الله العزيز للعلماء القدامى الذين جعلوه شغلهم الشاغل، فاكبوا عليه بكل إخلاص حتى تركوا لنا ثروة عظيمة من

---

(١) سورة فصلت: آية ٤٢.

(٢) سورة الحجر: آية ٩.

كتب التفاسير الكريمة، فبينوا مافي الكتاب العزيز من أوامر ونواه، ووقفوا على ما تتضمنه الآيات من استدلالات، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

ولقد منَّ الله تعالى عليّ بأن جعلني من خدام كتاب الله العزيز، ومع قلة حياتي فإنني استعنت بالله واتجهت إلى العمل في تفسير بعض آي الذكر الحكيم وهى الآيات التي تتناول أحكاما شرعية لأفسرها تفسيرا تحليليا من خلال الكتب المختصة بذلك، لعلى أقدم شيئا مفيداً، جعل الله هذا العمل صدقة جارية مدخرة عند رب العزة سبحانه وتعالى، مع علمي ويقيني بأني لست من فرسان هذا الفن ولا من شيوخه الذين منّ الله عليهم بسعة الأفق وقوة البصيرة، وقد اخترت سورة المجادلة لهذه الدراسة المتواضعة؛ وتوخيت فيها ما يلي:

أولاً: قدمت للسورة بدراسة تمهيدية تناولت فيها ترتيبها في النزول، وترتيبها في المصحف، وعدد آياتها، واسماءها، وسبب تسميتها بهذه الأسماء، وكونها مكية أم مدنية، وسبب نزولها، ومناسبة كل آية لما قبلها.

ثانياً: انتقلت إلى التفسير والتزمت فيه ببيان المعاني اللغوية، وبيان المناسبة بين السابق واللاحق من الآيات، والإعراب الذي ينبني عليه اختلاف المعنى، وكذلك القراءات الصحيحة المعتمدة، وأقوال العلماء فيما فيه خلاف، وأعملت جهدي في الترجيح بينها، وبينت بعض النكات البلاغية التي تشتمل عليها الآيات.

ثالثاً: توخيت الدقة في النقل عن كتب التفسير، واجتنبت ما احتواه بعضها من الدخيل، وما نقلته بالنص جعلته بين قوسين وماهو بالمعنى أطلقته عنهما، ولم أجعله بين قوسين.

رابعاً: عمدت إلى الاستعانة بالصحيح من كتب السنة فيما تبنى عليه العقيدة والأحكام، وما كان غير ذلك مما سقته في أسباب النزول عزوت مالم أتمكن من تخريجه إلى مصادره.

خامساً: جعلت الآية أو الآيات محل التفسير في مطالع الصفحات مرقمة بترقيمها في المصحف ليكون ذلك أجلى وأوضح في الانتقال بين الآيات.

سادساً: ترجمت لبعض الأعلام التي قد تخفي على القارئ ويحسن التعرف عليها.

هذا..والله أسأل أن يتقبل منى، وأن يغفر زلة القدم والقلم ويهدينا سواء السبيل.

د / سهام فاروق عمر

مدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن

جـ، الدكتور غانم قدوري

ـ سـرـاسـ والوثائق — الكويت.

﴾ فالمجادلة جاءت منها، لا من النبي ﷺ، وتسمى سورة (قد سمع) وتسمى في مصحف أبيّ بن كعب بسورة (الظهار).

وجه تسميتها بهذه الأسامي:

وجه تسميتها بالمجادلة بفتح الدال أو بكسرها افتتاحها بقضية امرأة أوس بن الصامت التي جادلت النبي ﷺ في شأن زوجها الذي ظاهر منها، ووجه تسميتها بـ (قد سمع) أن السورة افتتحت بـ (قد سمع الله قول التي تجادلك) ووجه تسميتها بالظهار أن القضية التي جادلت فيها كانت قضية الظهار، وهي التي افتتحت بها السورة.

هل هذه السورة مكية أو مدنية:

قال ابن عطية: " هي مدنية بإجماع إلا أن النقاش حكى أن قوله تعالى ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ .. ﴾ الآية.. مكي "(١).

وقال القرطبي: "مدنية عند الجميع إلا رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدني، وما عداها مكي، وقال الكلبي: نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ نزلت بمكة"(٢).

التفسير التحليلي

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ① ﴾ (٣).

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ٥ / ٢٧٢، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية.

(٢) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن بكر بن فرح الأنصاري القرطبي ١٠ / ٦٤٨٥، دار الغد العربي.

(٣) سورة المجادلة: آية ١.

سبب نزولها:

هى تلك الحادثة المشهورة التي روتها كتب السنة، فعن عروة بن الزبير قال: قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي علىَّ بعضه، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ وهى تقول: يارسول الله أكل شبابى ونثرت له بطنى حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ظاهر منى، اللهم إنى أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (١).

وهى في مسند أحمد أكثر تفصيلاً، فقد روى بسنده عن خولة بنت ثعلبة قالت: في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة قالت: " كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه وضجر، فدخل علىّ يوما فراجعته بشيء، فغضب وقال: أنت على كظهر أمي ، قالت: ثم خرج فجلس في نادى قومه ساعة، ثم دخل على، فإذا هو يريدنى على نفسي، قالت: قلت: والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إلىّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكم، قالت فواثبنى فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عنى، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتى، فاستعرت منها ثيابها ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: " يا خويلة: ابن عمك شيخ كبير فاتق الله فيه " قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن فتغشى رسول الله ﷺ ماكان يتغشاه، ثم سرِّى عنه، فقال لي: " يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك.. ثم قرأ علىَّ ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ.. ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قالت فقال لى رسول الله ﷺ: مُريه فليعتق رقبة. قالت: فقلت: يارسول الله: ما عنده مايعتق، قال: " فليصم شهرين متتابعين " قالت: فقلت:

---

(١) صحيح البخارى، كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: (وكان الله سميعاً بصيراً) ٩ / ١٤٤، ط الشعب، وسنن ابن ماجه كتاب الطلاق، باب الظهار ١/ ٦٦٦، واللفظ له تحقيق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى، دار الريان للتراث.

والله إنه شيخ كبير، ما به من صيام، قال: " فليطعم ستين مسكيناً وسقا [١] من تمر " قالت: فقلت: والله يارسول الله ماذاك عنده، قالت: فقال رسول الله ﷺ: " فإنا سنعينه بفرق [٢] من تمر، قالت: فقلت: يارسول الله. وأنا سأعينه بفرق آخر، قال: " قد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي به عنه ثم استوصي بابن عمك خيراً " قالت: ففعلت[٣].

وهذه المرأة خولة بنت ثعلبة، وفي بعض الروايات خويلة، وفي بعضها جميلة بنت مالك بن ثعلبة، أو بنت دليج العوفية.

قال النحاس وهذا ليس بمتناقض: يجوز أن تنسب مرة إلى أبيها، ومرة إلى أمها، ومرة إلى جدها [٤].

قال القرطبي: وخولة أصح، وزوجها أوس بن الصامت أخ عبادة ابن الصامت.

وقد مر بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه في خلافته، والناس معه على حمار فاستوقفته طويلاً ووعظته وقالت: يا عمر: قد كنت تدعى عميراً، ثم قيل لك عمر، ثم قيل لك أمير المؤمنين فاتق الله ياعمر، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب، وهو واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين: أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال: والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره لازلت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هى خولة بنت ثعلبة، سمع الله قولها من فوق سبع سماوات،

---

(١) الوسق: بفتح الواو وكسرها، وإسكان السين: مكيلة معلومة، وقيل: هو حمل بعير، وهو ستون صاعاً بصاع النبي ﷺ، والأصل في الوسق الحمل، وكل شيء وسقته فقد حملته -- انظر لسان العرب - وسق للإمام العلامة أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقى المصرى، دار صادر.

(٢) الفرق: بإسكان الراء وفتحها: مكيال ضخم لأهل المدينة معروف،فقيل: هو ثلاثة أصع. المصدر السابق - فرق.

(٣) مسند الإمام أحمد ٦/ ٤١٠، دارصادر.

(٤) انظر تفسير القرطبى ١٠ / ٦٦٨٥ : ٦٦٨٧.

أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟[١]

التفسير التحليلي:

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ ﴾ " قد سمع الله " قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بإدغام الدال في السين، وقرأ الباقون بالإظهار. وقال الآلوسي – رحمه الله – " قد سمع الله " السماع مجاز عن القبول والإجابة بعلاقة السببية، أو كناية عن ذلك، و (قد) للتحقيق أو للتوقع. وهو مصروف إلى تفريج الكرب لا إلى السمع لأنه محقق، أو إلى السمع لأنه مجاز، أو كناية عن القبول، والمراد: توقع المخاطب ذلك، وقد كان ﷺ يتوقع أن ينزل الله تعالى حكم الحادثة، ويفرج عن المجادلة كربها، وفي الأخبار مايشعر بذلك[٢].

قال الكسائي: من بيّن الدال عند السين فلسانه أعجمي وليس بعربي.

وقوله (وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ) معطوف على تجادلك.

قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ آي أن المولى عز وجل يسمع مراجعتكما لبعضكما بعضاً الحديث وأجابكما وهو يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر. ومن جملة ذلك ما جادلتك به هذه المرأة.

وجاء في فتح القدير: أن قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ في محل نصب على الحال، أو مستأنفة جارية مجرى التعليل لما قبلها.[٣]

جاء في روح المعاني: " فإن إلحافها في المسألة ومبالغتها في التضرع إلى الله تعالى ومدافعته عليه الصلاة والسلام إياها وعلمه عز وجل بحالهما من دواعي الإجابة، وصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور

---

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن على بن محمد الشوكاني: ٥ /١٨١ الطبعة الأولى ١٤١٥ – ١٩٩٤ م. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة محمود شكري الآلوسي البغدادي: ٢٨ / ٢، المركز الإسلامي للطباعة والنشر.

(٢) تفسير الآلوسي: ٢٨ /٣.

(٣) تفسير فتح القدير: ٥ / ١٨١.

وتجدده، وفي نظمها في سلك الخطاب تغليباً وتشريفا لها من جهتين[١].

ولذلك يتضح لنا هنا سر ختم الآية بقوله (سَمِيعٌ بَصِيرٌ).

قال الإمام الآلوسى " تعليل لما قبله بطريق التحقيق "[٢] آي أنه يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر، سميع لأقوال عباده قريب منهم عليم بأحوالهم فسمع قول المرأة وتحاورها مع رسول الله ﷺ، والاسم الجليل في الموضعين (وَٱللَّهُ يَسْمَعُ) و (إِنَّ ٱللَّهَ) لتربية المهابة وتعليل الحكم بما اشتهر به الاسم الجليل من وصف الألوهية وتأكيد استقلال الجملتين [٣]. وقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا من ناحية البيت ما أسمع ماتقول فأنزل الله عز وجل ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ [٤].

ونلحظ في هذه الآية أن إسناد السمع إلى الله تعالى كرر ثلاث مرات: قوله (قد سمع الله) وقوله (والله يسمع) وقوله (إن الله سميع)، وأن الإسناد الأول قرن بـ (قد)، وهى تدل على تحقيق مابعدها كما مر، والإسناد الثانى جاء بتقديم المسند إليه المعرفة – ولفظ الجلالة أعرف المعارف – على الفعل، وهذه الصيغة عند إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجانى تفيد إما تأكيد النسبة، لأن الفعل أسند مرة إلى الظاهر، ومرة إلى ضميره، أو قصرها على المسند إليه [٥]، والإسناد الثالث جاء مؤكداً بـ (إن) واسمية الجملة، فصيغ الإسناد الثلاث جاءت كلها مؤكدة، وذلك للإشارة إلى خطر المسموع،

---

(١) تفسير الآلوسي: ٢٨ / ٣، ٤.

(٢) تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: للقاضي أبـى السـعود، ٥ / ٦٩٢ – ٦٩٣، دار إحياء التراث العربي.

(٣) تفسير روح المعاني: ٢٨ / ٤.

(٤) ذكره البخارى في التوحيد باب ٩ (وكان الله سميعاً بصيراً) تعليقا ووصله النسائي فـي النكـاح (٦ / ١٦٨) باب الظهار، وابن ماجه مقدمة ١٣. أحمد بن حنبل: ٦ / ٤٦.

(٥) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للسيد المرحوم / أحمد الهاشـمى ص ١٤١، دار الفكـر، دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى، تصحيح السيد محمد رشيد رضـا، الطبعـة السادسـة، طبعة محمد على صبيح بتصرف ص ٩٥ – ٩٦ – ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م.

وإلى العناية به، وتأكيد الاستجابة له وإنصاف أهله، وإلى أن الله تعالى أقرب ما يكون إلى المظلومين والمضطرين يسمع شكواهم ويجيب دعاءهم، وأن عليهم أن يثقوا به إذا توجهوا إليه ضارعين، وأن لا يلجأوا إلا إلى وجهه الكريم، ولذلك أيضا قدم السمع على البصر في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

على أن السمع قدم على البصر في أكثر ورودهما في القرآن الكريم سواء أكانا منسوبين إلى الله تعالى أم إلى العباد، والسر في ذلك بالنسبة للآدميين، أن السمع يسبق وجوده على البصر، فالطفل يكتمل تميزه بسمعه قبل بصره، والمسموعات تدرك من جميع الجهات ولا تحتاج إلى توجه السمع إليها، أما المبصرات فلا ترى إلا من الجهة المواجهة للبصر، وتحتاج إلى توجه البصر إليها، والانتفاع بالسمع في مقام الهدايات والنبوات أكثر.

فقدم السمع على البصر لسبقه في الوجود، وعموميته، وكمال الانتفاع به.

أما بالنسبة له تعالى فصفاته كلها سواء في الشرف والفضل والكمال.

فالأمر فيه تعالى على خلاف البشر لا ترتيب ولا تفاوت عنده بين المسموعات والمبصرات، فسيان أن يتقدم السمع على البصر، أو البصر على السمع، وتقديم أحدهما إنما يكون لملحظ بلاغي تقتضيه مناسبة لفظية أو معنوية.

والمناسبة التي تقتضي تقديم السمع على البصر هنا أن الواقعة كانت شكوى، والشكوى يناسبها مجئ السمع قبل البصر.

الآية الثانية:

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝ ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن عرض المولى عز وجل قصة أول ظهار حدث في الإسلام؛ وهي قصة خولة وقول زوجها لها: أنت عليّ كظهر أمي، وذهاب خولة الأنصارية إلى رسول الله ﷺ وتحاورها ثم دعواها الله وشكواها له ببيان حالها وحال زوجها وأطفالها؛ شرع المولى سبحانه في بيان شأن الظهار وذكر حكمه المترتب عليه شرعاً، وفي ذلك تحقيق قبول تضرع تلك المرأة وشكواها بطريق الاستئناف، وأنه سبحانه عفو غفور لمن تاب وأناب وأقلع عن الذنب.

ألفاظ الظهار:

ألفاظ الظهار ضربان: صريح وكناية.

فالصريح: أنت عليّ كظهر أمي، وأنت عني، وأنت مني، وأنت معي كظهر أمي.

وكذلك أنت عليّ كبطن أمي، أو كرأسها، أو فرجها أو نحوه، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك عليّ كظهر أمي فهو مظاهر، مثل قوله: يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق تطلق عليه.

وقال الشافعي في أحد قوليه: لا يكون ظهاراً، وهذا ضعيف؛ لأنه قد وافق على أنه يصح إضافة الطلاق إليه خاصة حقيقة خلافاً لأبي حنيفة، فصح إضافة الظهار إليه. ومتى شبهها بأمه أو بإحدى جداته من قبل أبيه أو أمه فهو ظهار بلا خلاف.

والكناية: أن يقول: أنت على كأمي، أو مثل أمي فإنه يعتبر فيه النية، فإن أراد الظهار كان ظهاراً، وإن لم يرد الظهار لم يكن مظاهراً عند الشافعي وأبي حنيفة، والدليل عليه أنه أطلق تشبيه امرأته بأمه فكان ظهاراً.

وإذا شبه جملة أهله بعضو من أعضاء أمه كان مظاهرا، خلافاً لأبي حنيفة في قوله: إنه إن شبهها بعضو يحل له النظر إليه لم يكن مظاهراً. وهذا لا يصح؛ لأن النظر إليه على طريق الاستمتاع لا يحل له، وفيه وقع التشبيه وإياه قصد المظاهر، وقد قال الإمام الشافعي في قول: إنه لا يكون مظاهرا إلا في الظهر وحده. وهذا فاسد؛ لأن كل عضو منها محرم، فكان التشبيه به ظهاراً كالظهر ولأن المظاهر إنما يقصد تشبيه المحل بالمحرم فلزم على المعنى[١].

واختلف العلماء في قوله (أنت عليّ كظهر ابنتي أو أختي أو عمتي أو خالتي) فعن أبي حنيفة ومالك أنه ظهار، وبه قال الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري. وقال قتادة والشعبي: لا يكون ظهاراً بل يختص الظهار بالأم وحدها. واختلفت الرواية عن الشافعي ﷺ[٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٢٠٠ - ٢٠١.

(٢) فتح القدير: ٥ / ١٨١. جامع البيان: ١٧ / ٢٧٤.

والظهار لازم في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها على آي الأحوال كانت من زوج يجوز طلاقه. وكذلك عند مالك من يجوز له وطؤها من إمائه، إذا ظاهر منهن لزمه الظهار فيهن. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يلزم. قال القاضي أبو بكر بن العربي: وهى مسألة عسيرة جداً علينا؛ لأن مالكاً يقول: إذا قال لأمته أنت عليّ حرام لا يلزم. فكيف يبطل فيها صريح التحريم وتصح كنايته، ولكن تدخل الأمة في عموم قوله ﴿ مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ لأنه أراد من محلللاتهم، والمعنى فيه أنه لفظ يتعلق بالبضع دون رفع العقد فصح في الأمة أصله الحلف بالله تعالى[١].

وقال مالك: ليس على النساء تظاهر، وإنما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ ولم يقل اللائى يظهرن منكن من أزواجهن، إنما الظهار على الرجال قال ابن العربي: هكذا روى عن ابن القاسم وسالم ويحيى بن سعيد وربيعة وأبى الزناد. وهو صحيح معنى؛ لأن الحل والعقد والتحليل والتحريم في النكاح بيد الرجل ليس بيد المرأة منه شيء وهذا إجماع[٢].

ولا يقرب المظاهر امرأته ولا يباشرها ولا يتلذذ منها بشيء حتى يكفر، خلافا للشافعي في أحد قوليه؛ لأن قوله: أنت عليّ كظهر أمي يقتضى تحريم كل استمتاع بلفظه ومعناه. فإن وطئها قبل أن يُكفّر استغفر الله تعالى وأمسك عنها حتى يُكَفر كفارة واحدة.

وروى مجاهد وغيره: عليه كفارتان. وروى جماعة من الأئمة منهم ابن ماجه والنسائي عن ابن عباس: أن رجلاً ظاهر من امرأته فغشيها قبل أن يُكفِّر فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: " ما حملك على ذلك؟ فقال: يا رسول الله ! رأيت بياض خلخالها في ضوء القمر فلم أملك نفسي أن وقعت عليها. فضحك النبي ﷺ وأمره ألا يقربها حتى يُكَفِّر[٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧ / ٢٠١.

(٢) أحكام القرآن: لأبى بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي،٤ /١٨٩ المسألة الثامنة – دار الفكر.

(٣) رواه أبو داود في الطلاق (٢٢٢١) باب (١٧) في الظهار. مرسلا. والترمذي في الطلاق (١١٩٩) باب ماجاء في الظهار يواقع قبل أن يُكفِّر. والنسائي في الطلاق (٦ / ١٦٧) باب الظهار.

ومن به لمم وانتظمت له في بعض الأوقات الكلم إذا ظاهر لزم ظهاره؛ لما روى في الحديث: أن خولة بنت ثعلبة وكان زوجها أوس ابن الصامت وكان به لَمم فأصابه بعض لممه فظاهر من امرأته.

ومن غضب وظاهر من امرأته أو طلق لم يسقط عنه غضبه حكمه. وفي بعض طرق هذا الحديث[١] قال يوسف بن عبد الله بن سلام: حدثتني خولة امرأة أوس بن الصامت، قالت: كان بيني وبينه شيء، فقال: أنت عليّ كظهر أمي ثم خرج إلى نادى قومه، فقولها: كان بيني وبينه شيء، دليل على منازعة أحرجته فظاهر منها. والغضب لغو لا يرفع حكماً ولا يغير شرعاً وكذلك السكران[٢].

والذمي لا يلزم ظهاره. وبه قال أبو حنيفة. وقال الشافعي: يصح ظهار الذمي؛ والدليل قوله تعالى (مِنكُم) يعنى من المسلمين. وهذا يقتضى خروج الذمي من الخطاب.

كما أن قوله تعالى: (مِنكُم) يقتضى صحة ظهار العبد خلافاً لمن منعه وحكاه الثعلبى عن مالك، لأنه من جملة المسلمين، وأحكام النكاح في حقه ثابتة وإن تعذر عليه العتق والإطعام فإنه قادر على الصيام[٣].

قوله: ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾: (مَّا): نافية حجازية تعمل عمل ليس، و (هُن) اسمها، و (أُمَّهَٰتِهِم) خبرها.

والمعنى: لا تصير الزوجة أمّاً بقول أحدهم هذه المقالة، وهذه الجملة تمهيد لإبطال أثر صيغة الظهار في تحريم الزوجة بما يشير إلى أن الأمومة حقيقة ثابتة لا تصنع بالقول، إذ القول لا يبدل حقائق الأشياء.

قوله: ﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾ تأكيد لمفهوم الجملة السابقة من وجهين: اسمية الجملة، والقصر الحقيقى، وفيه قصر أمومة الأمهات على من ولدن، وطريقه

---

(١) لقد بين الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في "الفتح" (١٣ / ٢٧٣ / ٢٧٥) روايات وطرق هذا الخبر فارجع إليه.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٢٠٢ بتصرف.

(٣) المرجع السابق.

النفي والاستثناء؛ لأن (إنْ) بمعنى (ما). ويقول الإمام الآلوسي رحمه الله: " لا يشبه بهن في الحرمة إلا من ألحقها الله تعالى بهن كالمرضعات ومنكوحات الرسول ﷺ فدخلن في حكم الأمهات، وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة "(١).

قوله:﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ قوله (منكراً) و(زورا) منصوبان على الوصف لمصدر. وفي هذا زيادة من المولى عز وجل في توبيخهم وتقريعهم واستهجانهم. ذلك أن هؤلاء المظاهرين ليقولون بقولهم هذا منكراً من القول، آي قولاً فظيعاً ينكره العقل والشرع ولا يوافق عليه ذو طبع سليم، وهو كذب باطل منحرف عن الحق، يقول الشيخ المراغى – رحمه الله – في هذه الآية: " كيف تشبه من يسكن إليها وتسكن إليه، وجعل بينه وبينها مودة ورحمة، وصلة خاصة لا تكون لأم ولا لأخت، بمن جعل صلتها بابنها صلة الكرامة والحنو والإجلال والتعظيم، أن الرجل قوام على المرأة له حق تأديبها إذا اعوجت وهجرانها في المضاجع إذا جمحت، ولم يعط ذلك لابن ليعامل به أمه، فهذا زور وبهتان عظيم. وغير خاف مافي هذا من الاستهجان وشديد التشنيع على صدور هذا القول منهم "(٢).

وقد أكد القرآن كذب وبهتان هذا الخبر بـ (إن) واللام للتنبيه على شناعته إذ كانوا قد اعتادوه فنزلوا منزلة من يتردد في كونه منكراً وزوراً، وفي هذا دلالة على أن الظهار لم يكن مشروعاً في شرع قديم، ولا في شريعة الإسلام، وإنما كان من وضع أهل الجاهلية(٣).

قوله :﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ يعفو عن المظاهر إذا تاب وأدى الكفارة، ويغفر ذنبه، وأكدت الجملة بإن واللام للإشارة إلى واسع فضله ورحمته بالتجاوز عما وقعوا فيه، وتشريع ما يخرجهم من هذا المأزق ليعودوا إلى معاملة أزواجهم كزوجات لا كأمهات، وتأكيد على أنه سبحانه عندما سمع لم يكن سمعه مجرد سمع وإنما كان سمع إجابة ورحمة.

---

(١) تفسير روح المعاني: للآلوسى ٢٨ / ٥.

(٢) تفسير المراغى: أحمد مصطفي المراغى المجلد العاشر ٢٨/ ٦: ٧ – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٣) انظر التحرير والتنوير: ٢٨ / ١٣.

الآية الثالثة والرابعة:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾.

مناسبة الآيتين لما قبلهما:

لما بيّن الله تعالى حرمة المظاهرة شرع في بيان المخرج منها لمن وقع فيها، فأرشد إلى ذلك بوجوب الكفارة المذكورة في الآيتين.

التفسير التحليلي:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ الجملة معطوفة على ماقبلها، و (الذين) مبتدأ، خبره جملة) فتحرير رقبة) وهذه الجملة تتكون إما من مبتدأ خبره محذوف والتقدير فعليهم تحرير رقبة، أو من خبر، مبتدؤه محذوف، والتقدير: فكفارتهم تحرير رقبة، واللام في قوله (لما) بمعنى (إلى).

والآية دليل على أن كفارة الظهار لا تلزم بالقول خاصة حتى ينضم إليها العود.

وقد اختلف العلماء في معنى العود ولتوضيح المعنى لابد أولاً من بيان أقوال أهل العربية، ثم بيان أقوال الفقهاء.

أما في اللغة: فقال الفراء: لا فرق في اللغة بين أن يقال: ﴿ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ وفيما قالوا.

وقال أبو على الفارسي: كلمة (إلى) و (اللام) تتعاقبان، كقوله: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾[1]، وقوله ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾[2]. وأما لفظة (ما) في قوله (لما) فهى بمعنى " الذي "، والمعنى يعودون إلى الذي قالوا، وفي الذي قالوا، وجهان محتملان:

الأول: يحتمل أن يكون المراد ثم يعودون إليه بأن يفعلوا مثله مرة أخرى.

---

(١) سورة هود: آية ٣٦.

(٢) سورة الزلزلة: آية ٥.

الثاني: يحتمل أن يكون المراد ثم يعودون إليه بالنقض والرفع والإزالة وإلى هذا الاحتمال ذهب أكثر المجتهدين[١].

وأما عند الفقهاء فاختلفوا في معنى العود على سبعة أقوال:

الأول: أنه العزم على الوطء، وهو مشهور قول أبي حنيفة وأصحابه.

الثاني: العزم على الإمساك، آي البقاء على العلاقة الزوجية بألا يطلقها بعد التظاهر منها.

الثالث: العزم عليهما، وهو قول مالك في موطئه.

الرابع: الوطء نفسه فإن لم يطأ لم يكن عوداً.

الخامس: أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق، لأنه لما ظاهر قصد التحريم، فإن وصل به الطلاق فقد جرى على خلاف ما ابتدأه من إيقاع التحريم، ولا كفارة عليه، وإن أمسك عن الطلاق فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفارة، وهو قول الشافعي.

السادس: أن الظهار يوجب تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة، ومعنى العود عند القائلين بهذا أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة يقدمها.

السابع: وهو قول أهل الظاهر: هو تكرير الظهار بلفظه، قالوا: إذا قال: أنت على كظهر أمي في المرة الأولى فلا شيء عليه، فإن عاد وكرر هذا اللفظ مرة أخرى فهو العود إلى ما قال فتجب عليه الكفارة.

قال أبو العالية: وظاهر الآية يشهد له، لأنه قال ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ آي إلى قول ما قالوا[٢].

قال ابن العربي: هذا القول باطل قطعا ولا يصح[٣].

ورد الإمام القرطبي أيضاً على هذا القول بما ينقضه فقال: " قد رويت قصص

---

(١) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل: لعلاء الدين على بن محمد بن ابراهيم البغدادى الشهير بالخازن ٧ / ٤٤ – الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ – ١٩٥٥ م – مطبعة مصطفي البابى الحلبى بمصر.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ /٢٠٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٢٠٥.

المتظاهرين وليس في ذكر الكفارة عليهم ذكر تعود القول منهم، وأيضا فإن المعنى ينقضه، لأن الله تعالى وصفه بأنه منكر من القول وزور، فكيف يقال له إذا أعدت القول المحرم والسبب المحظور وجبت عليك الكفارة، وهذا لا يعقل، ألا ترى أن كل سبب يوجب الكفارة لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء في صوم أو غيره[١].

قوله: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾: آي فتداركه أو فعليه أو فالواجب إعتاق رقبة كانت، وعند الشافعي رحمه الله تعالى يشترط أن تكون كاملة سليمة من كل عيب، من كمالها إسلامها عند مالك والشافعي، كالرقبة في كفارة القتل، وعند أبى حنيفة وأصحابه تجزئ الكافرة ومن فيها شائبة رِقّ كالمكاتبة وغيرها.

وإن أعتق نصفي عبدين فلا يجزيه عند مالك وأبى حنيفة، وقال الشافعي يجزئ؛ لأن نصف العبدين في معنى العبد الواحد؛ ولأن الكفارة بالعتق طريقها المال فجاز أن يدخلها التبعيض والتجزي كالإطعام. ورد المالكية بقوله تعالى ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ فهذا الاسم عبارة عن شخص واحد، وبعض الرقبة ليس برقبة، وليس ذلك مما يدخله التلفيق؛ لأن العبادة المتعلقة بالرقبة لا يقوم النصف من رقبتين مقامها؛ ولأنه لو أمر رجلين أن يحجا عنه حجة لم يجزأ أن يحج عنه واحد منهما نصفها كذلك هذا؛ ولأنه لو أوصى بأن تشترى رقبة فتعتق عنه لم يجز أن يعتق عنه نصف عبدين، والإطعام وغيره لا يتجزئ في الكفارة[٢].

والفاء في قوله ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ للسببية، ومن فوائدها الدلالة على تكرر وجوب التحرير بتكرر الظهار[٣].

قوله: ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ التماس: من المس، والمس يقال: فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس، ويكنى به عن النكاح، والتماس يقتضى طرفين كل منهما فاعل المس، فهو يكون من جانب المرأة كما يكون من جانب الرجل.

واختلف العلماء في المراد بالتماس ففسره الإمام مالك بالملامسة فما فوقها،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٢٠٥.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٠٦.

(٣) إرشاد العقل السليم: ٨ / ٢١٦.

ودليله أن الظهار لفظ حرمت به عليه فأشبه لفظ الطلاق، وبه قال أبو حنيفة.

وذهب الشافعي إلى أن المراد بالمسيس الجماع، وإن كان يكون عنده مادونه، ودليله إجماعهم على أن الوطء محرم على المظاهر، وذلك أن الآية دلت على الجماع، وإذا دلت على الجماع لم تدل على ما فوقه، لأنها إما أن تدل على مافوق الجماع، وإما أن تدل على الجماع، وهى الدلالة المجازية، إذ لا يدل لفظ واحد دلالتين حقيقية ومجازية معاً عند بعض العلماء. ويضاف إليه أن الظهار مشبه عند العرب بالإيلاء، فوجب أن يختص عندهم بالجماع.

ويدل على ذلك أيضاً أن آيات المسيس بين الرجل والمرأة في القرآن الكريم، كلها تدل على الجماع، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾[1]، وقوله ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [2]، وقوله ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾[3]، فالمسيس حقيقة شرعية في الجماع.

ولذلك جعلت الكفارة عتق رقبة لأنه يفتدى بتلك الرقبة رقبة زوجه، ولا يكون ذلك إلا عن وقوع في كبير وهو الجماع.

قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ﴾ الوعظ زجر مقترن بتخويف، قال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب[4]، آي: تؤمرون به.

قوله: ﴿ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من التكفير وغيره ﴿ خَبِير ﴾ وهو خبر أريد منه لازمه، وهو التحذير من الوقوع فيما يغضب الله تعالى.

قوله: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾. والمعنى: فمن لم يجد رقبة ولا ثمنها فالواجب عليه صيام شهرين متصلين من قبل التماس، أو يملك رقبة ولكنه شديد الحاجة إليها لخدمته، أو كان مالكاً لثمنها إلا أنه يحتاج إليه لينفقه،

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٣٧.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٣٦.

(٣) سورة مريم: آية ٢٠.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهانى مادة (وعظ) طبعة دار الفكر.

أو كان له مسكن ليس له غيره ولا يجد شيئا سواه، فله أن يصوم عند الشافعي، وقال أبو حنيفة: لا يصوم وعليه العتق ولو كان محتاجاً إلى ذلك". وقال مالك: إذا كان له دار وخادم لزمه العتق فإن عجز عن الرقبة فعليه صوم شهرين متتابعين.

والتتابع عملاً بظاهر النص القرآني وإجماع العلماء على وجوب التتابع، فإن أفطر يوماً لغير عذر، أو جامعها ليلاً أو نهاراً عمداً استأنف في رأي الجمهور.

وقال الشافعي: لا يستأنف إذا وطئ ليلاً لأنه ليس محلاً للصوم. ورد على رأيه ابن العربي بأن الوطء ليلاً ليس بالمحل المأذون فيه بالكفارة، وإنما هو وطء تَعَدّ، فلابد من الامتثال للأمر بصوم لا يكون في أثنائه وطء[١].

ولا ينقطع التتابع عند المالكية بالمرض، وبالفطر سهواً، وبالإكراه، وبظن غروب الشمس، أو بقاء ليل فأكل أو شرب.

وعند الشافعية في الجديد، وكذا عند الحنفية ينقطع التتابع بالإفطار بعذر، وليس كذلك عند الحنابلة بل يبنى على ما مضى.

والأولى، ماذهب إليه المالكية لقوله تعالى ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [٢]، ولقوله ﷺ: " إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه "[٣].

ومن المعلوم أن الأشهر تعتبر بالأهلة فلا فرق بين التام والناقص فمن بدأ بالصوم في أول الشهر كمل الشهرين بالهلال ولو كانا ناقصين.

أما من بدأ بالصوم في أثناء الشهر ففيه خلاف.

قال الشافعية: يصوم ما بقى من الشهر، ثم يصوم الشهر التالي كاملاً لأنه

---

(١) أحكام القرآن: لابن العربي ٤ / ١٩٧.

(٢) سورة البقرة: آية ١٨٥.

(٣) سنن ابن ماجه. محمد بن يزيد عبد الله القزويني كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي حديث ٢٠٤٣ عن أبى ذر الغفارى قال رسول الله ﷺ " إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " ١ / ٦٥٩ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى – دار الفكر – بيروت.قال الشيخ الألباني: صحيح، أنظر حديث رقم: ١٧٣٢ في صحيح الجامع.

معلوم البداية والنهاية بهلاله، ثم يكمل ماصامه أولاً من الشهر الذي يعقب الشهر الكامل ثلاثين يوماً.

وقال الحنفية: لابد من ستين يوماً[١].

قوله:﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ أي فمن لم يستطع الصيام شهرين متتابعين لكبر سن، أو مرض مزمن، أو لمشقة شديدة لا تحتمل عادة فعليه أن يطعم ستين مسكيناً.

واختلفوا في مقدار ما يطعم لكل مسكين.

فقال الحنفية: يخرج لكل مسكين ما يخرج له في زكاة الفطر. أي نصف صاع من بر، وصاع من غيره، والصاع عندهم قدحان وثلث القدح بالكيل المصرى.

وعند المالكية: يخرج لكل مسكين مداً وثلثا المد.

وعند الشافعية والحنابلة: مُد، أي: نصف قدح من قمح أو غيره

ويجب التمليك عند الجميع قياساً على الزكاة وصدقة الفطر، ولم يذكر مع الإطعام قيد ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ اكتفاء بذكره مع تحرير الرقبة وصيام الشهرين، ولأنه بدل عن الصيام، وهو قول الجمهور.

وعند أبى حنيفة: لا يشترط في الإطعام وقوعه من قبل أن يتماسا[٢].

واختلف العلماء هل المعتبر في الكفارة حال الوجوب أو حال الأداء؟

فقال الشافعى: يعتبر حال الأداء في أحد قوليه، وقاله مالك في أحد قوليه أيضاً، وهو قول أبى حنيفة.

وقيل: المعتبر حال الوجوب، والأول أشهر[٣].

قوله: ﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾. (ذلك): إشارة إلى ماذكر من الأحكام.

قوله: ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي ذلك المذكور لتؤمنوا بالله ورسوله، ولما

---

(١) انظر التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دكتور / وهبه الزحيلى، طبعة دار الفكر.

(٢) انظر التحرير والتنوير: ٢٨ / ٢٢.

(٣) انظر أحكام القرآن: لابن العربي ٤ /١٩٤.

كان المخاطبون مؤمنين لزم تأويل الإيمان بصفة الكمال، أي لتؤمنوا إيماناً كاملاً بالامتثال لما أمركم الله ورسوله، فلا تشوبوا أعمال الإيمان بأعمال الجاهلية، وهذا زيادة في تشنيع الظهار وتحذير المسلمين من ارتكابه.

قوله: ﴿ لِتُؤْمِنُوا ﴾ خبر عن اسم الإشارة واللام للتعليل.

قوله: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾. و (تلك) إشارة إلى ما أشير إليه بـــ (ذلك)، وعبر بـــ (تلك) المؤنث نظراً للإخبار عنه بلفظ الحدود إذ هو جمع يجوز تأنيث إشارته كما يجوز تأنيث ضميره، كقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ (١).

قوله: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ أي: لهؤلاء الذين جحدوا هذه الأحكام واتبعوا سنن الجاهلية عذاب أليم في الآخرة.

وقد دلت هذه الآيات على إنصاف الإسلام للمرأة والسماع لها واحترام رأيها إذا كان رأياً مستنيراً يوافق الصواب والحق، فلقد جاءت وجادلت النبي ﷺ وظلت تحاوره حتى جاوبتها السماء.

وفي هذا إشارة إلى أن على المرأة أن تجاهد في رد الظلم عنها ولو كان الظالم أقرب الناس إليها، وأن على القاضي أن يسمع لها وأن ينصفها.

وفي جمعها مع النبي ﷺ في خطاب واحد بقوله عز وجل ﴿ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ إشارات.. منها:

أولاً: تشريفها تشريفاً عظيماً.

ثانياً: أن المرأة في الحق مثل الرجل لا تقل عنه شيئاً، ولا يتميز عنها بشيء إلا فيما خص الشرع به كلاً منهما.

ثالثاً: تدل هذه الآيات على أن المشرع هو الله عز وجل وحده، فالنبي ﷺ ظل يسمع شكواها، ويعلم أنها على حق، لكنه لم يبرم شيئاً انتظاراً لتشريع الله تبارك وتعالى، وما يتضمنه من بيان في كيفية الخروج من هذا المأزق على مايرضيه

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٢٩.

سبحانه وما ذكرته السنة من أحكام إنما هو بيان للكتاب، وتفصيل لما أجمل، بأمر الله عز وجل ووحي منه سبحانه.

الآية الخامسة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ ﴾.

بيان المناسبة:

بعد أن ذكر المولى عز وجل الظهار وما يترتب عليه من كفارة، بين أنه عز وجل شرعها – أي الكفارة – تغليظاً على الناس حتى يقلعوا عن هذه العادة السيئة التي جبلوا عليها في الجاهلية وأن يتبعوا أوامر الله ورسوله ﷺ فتصفوا نفوسهم، ثم أردف هذا ببيان أنه من يشاقق الله ورسوله ويعاند ويكابر ويبتعد عما جاء في الكتاب الحكيم يلحق به الخزي والذل والهوان في الدنيا والآخرة.

التفسير التحليلي:

قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ المحادة: المشاقة والمعاداة، وأصل المحاده: الممانعة، ومنه قيل للبواب حداد[1]، والمراد بهم الذين يحادون الرسول ﷺ المرسل بدين الله فمحادته محادة لله، والمقصود منها تسلية رسول الله ﷺ وبشارته بأن أعداءه المتحزبين عليه يكبتون.

وعبر بالمحادة لأن كلا من المتعاديين في حد وجهة غير حد الآخر وجهته، كما يقال: إذا كانت أرضه إلى جانب أرضه وفي جهة حده. والمحادة كالمشاقة، لأن كلا منهما في شق غير شق الآخر.

وقيل: إطلاق ذلك على المتعاديين باعتبار استعمال الحديد، لكثرة ما يقع بينهما من المحاربة بالحديد كالسيوف والنصال وغيرها.

وقيل: من الحدود ؛ بمعنى الأمور التي لا تتجاوز، وإليه أشار البيضاوي

---

(١) تفسير المراغي: ٢٨ / ٨.

بقوله: " أو يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودهما "[١]

ومناسبته لما قبله على ما قال ناصر الدين في غاية الظهور والحسن إذ أن ذكر المحادة دون المعادة والمشاقة أنسب ما يكون في سياق ذكر حدود الله تعالى.

وقد عقب شيخ الإسلام المولى حسن جلبي[٢] على كلام البيضاوي بقوله: " وعلى هذا ففيه وعيد عظيم للملوك وأمراء السوء الذين وضعوا أموراً خلاف ماحده الشرع وسموها: يسا[٣] وقانوناً، والله تعالى المستعان على ما يصنعون "[٤].

ويضيف الشيخ المراغي رحمه الله: " نعم إنه لا بأس بالقوانين السياسية إذا وقعت باتفاق ذوى الآراء من أهل الحلّ والعقد على وجه يكون به انتظام شمل الجماعات، إذا كانت لا تخالف في أحكامها روح التشريع الديني كتعيين مراتب التأديب للزجر على المعاصي، والجنايات التي لم ينص الشارع فيها على حد معين، بل فوض الأمر فيها للإمام، وليس في ذلك محادة لله ورسوله، بل فيها استيفاء لحق الله على الوجه الأكمل "[٥].

وقد نزلت هذه الآيات في أهل مكة عام الأحزاب حين أرادوا التحزب على رسول الله وأصحابه، وكان في السنة الرابعة، وقيل: في الخامسة، وقد كانت بشارة لـ ﷺ كما سبق أن أشرت، وقد تحقق ذلك يوم الخندق.

قوله: ﴿ كُبِتُوا ﴾ قال قتادة: أي اخزوا، وقال الفراء: غيظوا، وقال ابن زيد:

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: للقاضى ناصر الدين أبى سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي ٢ / ٤٧٤، دار الكتب العلمية. وحاشية الشهاب المسماه عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي: ٨ / ١٦٩ دار إحياء التراث العربي.

(٢) هو سعد الله بن عيسى بن أمير خان الفاضل المعروف بسعدي لبي، اشتغل بالتدريس والقضاء والإفتاء، له حواش مفيدة على تفسير البيضاوي متداولة بين فحول العلماء، توفي عام ٩٤٥ هـ. انظر طبقات المفسرين للإمام أحمد بن محمد الأدنوى، تحقيق سليمان بن /صالح الخرجى، / ٣٧٧، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

(٣) اليسا: وضع قانون للمعاملة، وهو لفظ غير عربي، حاشية الشهاب على البيضاوي ٨ / ١٦٩.

(٤) المرجع السابق. روح المعاني: ٢٨ / ٢٠.

(٥) تفسير المراغي: ٢٨ / ١٠.

خذلوا، وقال أبو عبيدة والأخفش: أهلكوا وقال الراغب: ردوا بعنف وذل، وذلك إشارة إلى ما كان يوم الخندق، وقيل يوم بدر.

وقال السدي: لعنوا.

وقيل: معنى ﴿ كُبِتُوا ﴾ : سيكبتون، وعبر عن المضارع بالماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، لصدوره عما لا خلاف في خبره سبحانه على طريقة قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾[١].

وقد تحقق هذا الإنذار بإذلال المشركين بالقتل والأسر والقهر يوم بدر والخندق، وفي ذلك تبشير للمؤمنين على من عاداهم، ووعيد لكل الحكام المسلمين الذين يهجرون شريعة الله تعالى، ويقيمون القوانين الوضعية.

قوله: ﴿ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾ من كفار الأمم الماضية المشاقين للرسل عليهم السلام.

قوله: ﴿ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ ﴾ أي: وكيف يحادون عن أحكام الله وشريعته، وقد أنزل وبين الله لهم بالأدلة الواضحة أحكام وحدود ومعالم الشريعة السمحة.

قال الإمام الآلوسي: "﴿ وَقَد أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ ﴾ حال من واو ﴿ كُبِتُوا ﴾ أي: كبتوا لمحادتهم، والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حاد الله تعالى ورسوله من قبلهم من الأمم وفيما فعلنا لهم، وقيل: آيات تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به"[٢].

قوله: ﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝ ﴾ والمراد بالكافرين أي الكافرين بكل ما يجب الإيمان به وتدخل فيه تلك الآيات دخولاً أوليا ﴿ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ أي مذل يذهب بعزهم وكبرهم.

وتعريف (الكافرين) تعريف الجنس ليستغرق كل الكافرين.

---

(١) سورة النحل: آية ١. روح المعاني: ٢٨ / ٢٠ :٢١.

(٢) أبو السعود ٥ / ٦٩٤، الآلوسي: ٢٨ / ٢٢، والمراغي: ٢٨ / ٩.

ووصف عذابهم بـــ (المهين) لمناسبة وعيدهم بالكبت الذي هو الذل والإهانة.

وفي الآية التفات من الغيبة في قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ إلى التكلم في قوله ﴿ وَقَد أَنزَلْنَآ ﴾، إذ كان الأصل على الغيبة أن يقال: وقد أنزل وفائدة هذا الالتفات أمران:

أولهما: دفع توهم أن يعود الضمير – إذا عُبر بالغيبة – إلى (رسوله).

وثانيهما: أن في إسناد الإنزال إلى ذاته العلية استحضاراً لتعلق الإنزال به سبحانه دون غيره مع ما يشتمل عليه ضمير المتكلم (نا) من التعظيم.

الآية السادسة:

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ ﴾.

بيان المناسبة:

لما ذكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده ثم ذكر المحادين المعادين والمخالفين وبين أن لهم الذل والعذاب المهين، أردف بيان أنه تعالى يُحصى كل شاردة وواردة تصدر منهم، وأنهم مجزيون بها.

التفسير التحليلي:

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ منصوب بما تعلق به اللام من الكون المقدر في قوله ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: وكائن الكافرون عذاب مهين يوم يبعثهم الله، أو منصوبا بـــ ﴿ مُّهِين ﴾، أو بإضمار (اذكر)، أي: اذكر ذلك اليوم تعظيماً له وتهويلاً، وقيل: منصوب بـــ (يكون) على أنه جواب لمن سأل متى يكون عذاب هؤلاء؟ فقيل له: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ﴾ أي: يكون يوم يبعثهم، وقيل: بـــ (الكافرين) وليس بشيء، و ﴿ جَمِيعًا ﴾ حال مؤكدة يجمعه كل شيء يوم القيامة، وبإحضاره جميع المخلوقات، والمعنى: يبعثهم الله جميعاً يوم القيامة بحيث لا يبقى منهم أحد غير مبعوث، ويجوز أن تكون (جميعاً) حال غير مؤكدة، والمعنى: أي يبعثهم مجتمعين في صعيد واحد[1].

---

(١) انظر تفسير الآلوسي: ٢٨ / ٢٣ ــ وتفسير أبو السعود: ٥ / ٦٩٥.

قل الشيخ المراغي: في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ شديد الوعيد، والتقريع العظيم، ليعرفوا أن ما حاق بهم من العذاب كان من جراء أعمالهم وقبيح أفعالهم(١).

﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾ أي يخبرهم المولى عز وجل عما عملوا من القبائح ببيان صدورها عنهم، أو بتصويرها في تلك النشأة بما يليق بها من الصور الهائلة على رؤوس الأشهاد تخجيلاً لهم وتشهيراً بحالهم وزيادة في خزيهم ونكالهم(٢).

قوله تعالى ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ استئناف كأن سائلاً قد سأل عن كيفية التنبئة أو عن سببها. كأنه قيل: كيف ينبئهم بأعمالهم وهى أعراض منقضية متلاشية؟ فيكون الجواب: قد أحصاه المولى عز وجل وعدّه، أو قيل: لم ينبئهم الله بذلك؟ فقيل: أحصاه الله تعالى ونسوه.

﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ أحاط به عدداً، ولم يغب عنه شيء منه.

قوله: ﴿ وَنَسُوهُ ﴾: النسيان: ترك الإنسان ضبط ما استودع إما بضعف قلبه، وإما عن قصد، حتى ينحذف عن القلب ذكره، يقال: نسيته نسياناً(٣). والنسيان في الآية من جحدهم بيوم الجزاء وإنكارهم لوقوعه، أو من تهاونهم وغفلتهم عن الآخرة.

وإنما أنباهم به ليعرفوا أن ما عاينوه من العذاب إنما حاق بهم لأجله، وفيه مزيد توبيخ وتنديم لهم غير التخجيل والتشهير.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ ﴾ الجملة القرآنية اعتراض تذييلى قررت مضمون ما قبلها من إحصائه تعالى لأعمالهم وأنه لا يخفي عليه شيء مهما صغر أو كبر. نسى أو ذكر.

---

(١) تفسير المراغي: ٢٨ / ١٠.

(٢) تفسير أبو السعود: ٥ / ٦٩٥، والآلوسي: ٢٨ / ٢٣.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: للعلامة الراغب الأصفهانى / ٤٩١، دار الفكر.

الآية السابعة:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

هذه الآية تقرير وتأكيد لما سبق من إحاطة وشمول علم الله بكل شيء، وأن هذه الأنباء إنما هو لزيادة التقريع والتوبيخ يوم الموقف على رؤوس الأشهاد فيكون ذلك أبلغ وأنكى وأشد إيلاماً لهم.

التفسير التحليلي:

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي: ألم تعلم، فالرؤية هنا علمية وليست بصرية، لأن علم الله تعالى لا يُرى، والاستفهام تقريري.

قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ من كل ما يبصر ويسمع، وما لا يبصر، وما لا يسمع، وهو أعم من قوله ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ لاختصاصه بعلم المبصرات.

قوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ قيل: إنه استئناف مقرر لما قبله من سعة علمه تعالى ومبين لكيفيته ويكون من كان التامة. وقرئ (تكون) بالتاء باعتبار التأنيث في (النجوى) وإن كان غير حقيقي، أي: ما يقع من تناجي ثلاثة نفر، أي: من مسارتهم على أن (نَّجْوَىٰ) مضافة إلى ثلاثة، أو على أنها موصوفة بها، إما بتقدير مضاف أي من أهل نجوى ثلاثة، أو بجعلهم نجوى في أنفسهم مبالغة[1].

و (مَا) نافية، و (يَكُونُ) مضارع كان التامة، و (مِن) زائدة في النفي لقصد العموم، وفي الزمخشري: (مِن) فاصلة، أو على أن المعنى ما يكون

---

(١) تفسير أبو السعود: ٥ / ٦٩٥.

شيء من النجوى واختار في الكشاف الثاني[١].

﴿ نَّجْوَى ﴾ من ناجيته أي ساررته، وأصله أن تخلو به في نجوه من الأرض، وقيل: أصله من النجاة وهو أن تقاوله على ما فيه خلاصه أو أن تنجو بسرك من أن يطلع عليك[٢].

و ﴿ نَّجْوَى ﴾ في معنى فاعل (يَكُون)، والنجوى: اسم مصدر من ناجاه إذا ساره، ﴿ ثَلَٰثَة ﴾ مضاف إليه أي ما يكون تناجى ثلاثة من الناس ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ أي إلا والله مطلع عليهم كرابع لهم.

قوله: ﴿ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ أي ولا نجوى خمسة إلا هو معهم كسادس لهم.

قوله: ﴿ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ ﴾ أي ولا من نجوى أقل من ذلك، فيكون معطوفا على ما قبله، ويجوز أن تكون (لا) نافية للجنس فيكون (أدنى) في محل نصب اسم (لا).

قوله: ﴿ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ كواحد منهم، ﴿ أَيْنَ مَا كَانُواْ ﴾ حيثما وجدوا.

ويجوز في (أكثر) أن يكون محله الجر كسابقه، أو النصب عطفا على اسم (لا)، وقرئ بالرفع عطفاً على محل (من نجوى) أو محل (لا أدنى) إن جعلت (لا) لنفي الجنس، أو على الابتداء، وما بعدها خبرها[٣].

وأرجع بعضهم كالقاضيين البيضاوي وأبي السعود اسم الإشارة إلى (ثلاثة)،

---

(١) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للعلامة أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ٤ / ٧٣، دار المعرفة.

(٢) المفردات في غريب القرآن: / ٤٨٤.

(٣) إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في ميع القرآن: للعكبري ٢ / ٢٥٨ دار الكتب. البحر المحيط في التفسير: لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ٨ / ٢٤٣، دار الكتب العلمية.

وقالوا: ولا أقل مما ذكر كالواحد والإثنين، ولا أكثر كالستة وما فوقها[١].

والظاهر أنه راجع إلى الخمسة، لأنه إذا كان المجموع واحداً فمع من يتناجى هذا الواحد؟ وضد من؟ والإثنان أيضاً يقال فيهما ذلك.

والاستثناء في ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ و ﴿ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ و ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ مفرغ من عموم الأحوال، والجمل التي بعد حرف الاستثناء في مواضع تلك الأحوال، والتقدير: ما يكون من نجوى ثلاثة مطلع عليهم في حال من الأحوال إلا في حال اطلاع الله تعالى عليهم.

والمقصود من هذا الخبر الإنذار والوعيد، ومراعاة الله في السر كمراعاته في العلن.

وتخصيص عددى الثلاثة والخمسة بالذكر لحكم منها..

قيل: لأن بعض المتناجين الذين نزلت الآية بسببهم كانوا جماعات بعضها ثلاثة، وبعضها خمسة.

وقيل: إن العدد الفرد أشرف من الزوج فلهذا خص الله تعالى الثلاثة والخمسة.

وقيل: لأن أقل ما يكفي في المشاورة ثلاثة حتى يتم الغرض فيكون اثنان كالمتنازعين في النفي والإثبات، والثالث كالمتوسط الحاكم بينهما فحينئذ تحمد تلك المشاورة ويتم ذلك الغرض. وهكذا كل جمع يجتمع للمشاورة لابد من واحد يكون حكماً بينهم مقبول القول[٢].

وقال بعضهم: العدد غير مقصود[٣]، وهو الحق، لأن الله تعالى ما أراد إلا تقريب علمه على همس العباد وخفاياهم بأنه يكون كرابع للثلاثة، وسادس للخمسة. مع أن الله تعالى أقرب للمرء من حبل الوريد، يعلم هواجسه ونوازعه، قال سبحانه: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[٤].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢ / ٤٧٥..

(٢) تفسير الخازن: ٧ / ٤٥.

(٣) انظر تفسير البيضاوي: ٢ / ٤٧٥، وتفسير الرازي: ٢٩ / ٢٦٥ – ٢٦٦، والتحرير والتنوير: ٢٨ / ٢٦.

(٤) سورة طه: آية ٧.

واختلف العلماء في المراد من المعية الواردة في قوله تعالى ﴿ إِلا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ فقال البعض: المعية هنا حقيقية بناء على قوله تعالى ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ وقوله ﴿ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ وقوله ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ فالضمير (هو) ظاهره أنه يعود على ذاته سبحانه، ويكون ذلك معلوماً من خلال قوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾، أي أنها معية تناسب ذاته تعالى مما لايكون فيها مشابهة للحوادث.

وقال آخرون: المعية هنا مجازية بناءاً على أن القول بالحقيقة يلزم عليه المشابهة، ومن ثم وجب التأويل بأن المراد بالمعية معية علمه تعالى.

قوله:﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾، ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي الرتبى ﴿ يُنَبِّئُهُم ﴾ قرئ بالتخفيف والهمز، وقرأ زيد بن على بالتخفيف وترك الهمز وكسر الهاء[1].

والإخبار هنا تفضيحاً وتقريعاً وتوبيخاً لهم، وأنه يكون يوم القيامة في المشهد العظيم وذلك أدعى إلى مزيد الإيلام والحسرة والخزى والعار وذلك إظهاراً لما يوجب عذابهم.

كما أن تأجيل إنبائهم بما تكلموا وما عملوا في الدنيا إلى يوم القيامة أدل على سعة علم الله من علمه بحديثهم في الدنيا، لأن معظم علم العالمين يعتريه النسيان في مثل ذلك الزمان من الطول وكثرة تدبير الأمور في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ تأكيد لكمال علمه تعالى وتمام إحاطته.

وختم الآية الكريمة بالعلم يعتبر تقريراً لما سبق من علمه بالمحادين له والمنافقين والمناجين، ويترتب على هذا أنه سبحانه سيجزى كلاً بما عمل.

قال الشيخ المراغي: "أي ثم ينبئ هؤلاء المتناجين بما عملوا من عمل يحبه أو يسخطه يوم القيامة، وأنه لعليم بنجواهم وأسرارهم، لا تخفي عليه خافية من أمرهم"[2].

قال الإمام أبو السعود: ﴿ إِن ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية

---

(١) تفسير الآلوسي: ٢٨ / ٢٥.

(٢) تفسير المراغي: ٢٨ / ١١.

للعلم إلى الكل سواء "[١].

الآية الثامنة:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن ذكر المولى عز وجل أنه يعلم السر وما يخفي، عليم بما يكون من التناجي بين الثلاثة والأكثر والأقل. خاطب الرسول ﷺ بأسلوب التعجيب من حال اليهود والمنافقين الذين نهوا عن النجوى بالعدوان ومع ذلك فهم يتناجون ولم ينتهوا. ثم ذكر المولى عز وجل أنهم كانوا يحيون الرسول بقولهم (السام عليكم) أي الموت والهلاك وهم يقولون في أنفسهم لو كان رسولاً من عند الله لعجل المولى عز وجل بعقابنا ونسوا أن المولى عز وجل حليم لا يعاجل بالعقوبة.

قال ابن العربي[٢]: "وكانوا يقولون: لو كان محمد نبياً لما أمهلنا الله بسبّه والاستخفاف به، وجهلوا أن الباري تعالى حليم لا يعاجل من سبّه، فكيف من سبّ نبيه، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: "لا أحد أصبر على الأذى من الله يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم"[٣].

سبب النزول:

قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأي المؤمنون نجواهم قالوا: ماتراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلا يزالون

---

(١) تفسير أبو السعود: ٥ / ٦٩٦.

(٢) أحكام القرآن: ٤ / ١٩٥.

(٣) أخره البخاري في /صحيحه في كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ٥/ ٢٢٦٢.

حتى يندم أصحابهم وأقرباؤهم، فلما طال ذلك وكثر، شكوا إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية(١).

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ عن عائشة قالت: جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقلت: السام عليكم وفعل الله بكم، فقال رسول الله ﷺ: " مه ياعائشة فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش "، فقلت: يارسول الله ألست أدرى ما يقولون؟ قال: " ألست ترين أرد عليهم مايقولون؟ أقول: وعليكم ". ونزلت هذه الآية في ذلك ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾(٢).

وعن قتادة عن أنس أن يهودياً أتى النبي ﷺ وأصحابه فقال: السام عليكم. فرد عليه النبي ﷺ وقال: " أتدرون ماقال هذا؟ "قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال كذا ردوه عليّ " فردوه، قال: قلت السام عليكم " قال: نعم. فقال النبي ﷺ عند ذلك: "إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليك ما قلت " فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾(٣).

التفسير التحليلي:

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ الهمزة للتعجب من حال اليهود والمنافقين حيث إنهم الذين نهوا عن التناجي عن رسول الله ﷺ والمؤمنين لكنهم عادوا لما نُهوا عنه.

والرؤية بصرية بقرينة تعديتها بحرف (إلى) والاستفهام إنكاري تعجبي توبيخي.

---

(١) تفسير البغوي: ٤/ ٣٨.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب " كيف يرد على أهل الذمة "، فتح الباري بشرح صحيح البخاري باب " السلام " ٨ / ٧١. أسباب النزول للواحدي لأبى الحسن على بن أحمد بن محمد بن على الواحدي النيسابوري شرح وتحقيق رضوان جامع رضوان ص٢٧٥، ٢٧٦ مكتبة الإيمان.

(٣)أخره البخاري: كتاب: التفسير، باب: (كيف الرد على أهل الذمة بالسلام)، ٥/ ٢٣٠٨.

قوله: ﴿ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ التعريف للعهد، لأن سياق الكلام في نوع خاص من النجوى، وهى النجوى التي تحزن الذين آمنوا كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [١].

ويجوز أن يكون النهى عن جنس النجوى في أول الأمر، ليعم ذلك كل نجوى بمرأي من الناس سداً للذريعة. قال ﷺ: "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس أجل أن يحزنه"[٢] أي فإن ذلك يحزنه، وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عنه ﷺ " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه فإن ذلك يحزنه "[٣].

وعن نوع النهى وحكمه قال الإمام النووي: وفي هذه الأحاديث النهى عن تناجى اثنين بحضرة ثالث، وكذا ثالث أو أكثر بحضرة واحد، وهو نهى تحريم، فيحرم على الجماعة المناجاة دون واحد منهم إلا أن يأذن.

ومذهب ابن عمر ﷺ ومالك وأبو حنيفة وجماهير العلماء أن النهي عام في كل الأزمان وفي الحضر والسفر، وقال بعض العلماء: إنما المنهي عنه المناجاة في السفر دون الحضر لأن السفر مظنة الخوف، وأدّعى بعضهم أن هذا الحديث منسوخ، وأن هذا كان في أول الإسلام، فلما فشا الإسلام، وآمن الناس سقط النهي، وكان المنافقون يفعلون ذلك بحضرة المؤمنين ليحزنوهم، أما إذا كانوا أربعة فتناجى اثنان دون اثنين فلا بأس بالإجماع"[٤].

ومن صور التناجي المنهي عنه أن يتكلم رجلان بلغة لا يعرفها ثالث معهما.

---

(١) سورة المجادلة: آية (١٠).

(٢) رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٩٠) باب (٤٧) إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسـاراة والمناجاة. رواه مسلم في السلام (٢١٨٤) باب (١٥) تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه. وأبو داود في الأدب (٤٨٥١) باب في التناجي والترمذي في الأدب (٢٨٢٧) باب ما جاء لا يتناجى اثنان دون ثالث.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٢ /١٤٦.

(٤) صحيح مسلم بشرح الإمام محيى الدين أبى زكريا بن شرف بن مري الحزامى النـووي: ١٤ / ١٦٧ دار الريان للتراث.

قوله: ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ بصيغة المضارع للدلالة علي تكرار هذا الفعل منهم وتجدده، ولاستحضار صورته العجيبة.

قوله: ﴿ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ قرأ حمزة وخلف رُوَيس عن يعقوب (ويَنْتَجُونَ)[1] في وزن يفتعلون وهي قراءة عبد الله وأصحابه. وقرأ الباقون (ويَتَنَاجَوْنَ) في وزن يتفاعلون، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، لقوله تعالى: (إذا تناجيتم) و (تناجوا) النحاس: وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد، نحو تخاصموا واختصموا، وتقاتلوا واقتتلوا فعلي هذا (ويتناجون) و "ينتجون "واحد. وقرأ الضحاك ومجاهد وحميد (ومعصيات الرسول) بالجمع[2].

قوله: ﴿ بِٱلْإِثْمِ ﴾ الذنب، وهو مايشتمل عليه تناجيهم من كلام الكفر وذم المسلمين، والباء للملابسة، أي يتناجون ملابسين الإثم والعدوان ومعصية الرسول.

قوله: ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ الظلم، وهو مايدبرونه من الكيد للمسلمين.

قوله: ﴿ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ مخالفة أمره، ومن جملة ذلك أنه ﷺ نهاهم عن النجوى وهم يعودون إليها.

وبدأ بالإثم لعمومه، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس إذ هي ظلامات العباد، ثم ترقى إلي ماهو أعظم، وهو معصية الرسول ﷺ.

قوله: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ تلك صفة أخرى من صفاتهم الخبيثة تحمل بسوء النوايا والغيظ الذي تضمره قلوبهم، والذي يتفلت منهم علي ألسنتهم فهم إذا جاءوا إلي النبي ﷺ مظاهرين الإسلام والولاء، طاوين الكفر والبغضاء، غلبتهم حقيقتهم، فأبت ألسنتهم أن يحيوه ﷺ بتحية الإسلام المترعة بالطمأنينة والأمان، وألا ينطقوا إلا بتحية تشبه حالهم، توهم بالأمان وتخفي بين ثناياها الكفر والعدوان، فكانوا يقولون: السام عليكم موهمين أنهم ينطقون لام السلام، والسام: الموت قاصدين بذلك الدعاء علي النبي ﷺ وعلي المسلمين بالموت خلاصاً منهم.

---

(١) من القراءات الشاذة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ /٢١٢. وتفسير روح المعاني: ٢٨ / ٢٦.

واختلف العلماء في رد السلام على أهل الذمة هل هو واجب كالرد علي المسلمين؟

وإليه ذهب ابن عباس والشعبي وقتادة.

وذهب مالك إلي أن ذلك ليس بواجب؛ فإن رددت فقل "عليك "واختار ابن طاوس أن يقول في الرد عليهم: علاك السلام، أي ارتفع عنك.

واختار بعض المالكية: السِّلام بكسر السين، يعنى الحجارة[1]. وما قاله مالك أولي اتباعاً للسنة.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي يقول بعضهم لبعض، أو يقولون في مجامعهم.

قوله: ﴿ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (لولا) للتحضيض، أي هلا يعذبنا الله بسبب كلامنا الذي نتناجى به من ذم النبي ﷺ، وذمه بما كانوا يحيونه به من قولهم "السام عليكم"، ومن قولهم له "راعنا"، وهو سب في لغتهم معناه اسمع لا سمعت وغير ذلك.

ومما يستفاد من هذه الآية عدم التسرع في الانتقام والمعاندة، فهذا خاطر من خواطر أهل الضلالة المتأصلة فيهم، وهي توهمهم أن شأن الله تعالى كشأن البشر في إسراع الانتقام مما لا يرضاه.

روى البخاري بسنده عن أبى عبد الرحمن السلمي عن أبى موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: "ليس أحد أو ليس شيء أصبر علي أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولداً، وإنه ليعافيهم ويرزقهم"[2].

قوله: ﴿ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَا﴾ أصل الصلي: إيقاد النار، ويقال: صليت الشاة: شويتها، وهي مصلية، وصلي الكافر النار: قاسى حرها والمعنى: كافيهم العذاب جهنم.

قوله: ﴿ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ الفاء هنا للتفريع، وهو تفريع علي اليهود بشأن ذم جهنم، أي بئس هذا المآل مآلاً.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٧ / ٢١٤.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب الصبر علي الأذى، وقول الله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ٨ / ٣١.

وفي الآية التفات من الخطاب إلي الغيبة، ثم من الغيبة إلي الخطاب سواء قلنا أن الخطاب بقوله (ألم تر) للنبي ﷺ خاصة، أو عام لكل أحد، والنبي ﷺ يدخل فيه دخولاً أولياً.

والالتفات من الخطاب في قوله (ألم تر) إلي الغيبة في قوله: (ومعصية الرسول) إذ كان حق الخطاب أن يقال: ومعصيتك، ثم من الغيبة إلي الخطاب في قوله (وإذا جاءوك) ، وفي هذا التلون إثارة لتنبيه السامع وتنشيط لذهنه إلي تمام الوعي، لأن الكلام في المنافقين، وحق علي السامع أن يتجنب هذا السلوك المشين.

هذا علي وجه الإجمال، أما علي التفصيل، فعبر بالخطاب أولاً للدعوة إلي استحضار أحوال المنافقين وتقلبهم في نفاقهم ليميزهم النبي ﷺ والمؤمنون بعلاماتهم.

ثم عدل إلي الغيبة ليشير إلي أن المعصية ليست لشخصه ﷺ، وإنما لصفته، وهي كونه رسولا.

ثم عدل إلي الخطاب لما يشير إليه من الدفاع عن النبي ﷺ، فالمنافقون يحيونه بما لم يحييه به الله من الكلام المحرف الذي يتضمن السب واللعن، وخطاب الله تعالى له ﷺ فيه تشريف له، ورفع لشأنه، ورد لاعتباره.

الآية التاسعة:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن بيّن المولى عز وجل أن تناجى اليهود والمنافقين كان الدافع إليه الإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ، وبعد أن فضحهم ببيان تحيتهم الخادعة لرسول الله ﷺ ودعوتهم عليه بالموت. نادى عباده المؤمنين مؤدباً لهم ألا يكونوا مثل اليهود والمنافقين. وإن استدعى الأمر للتناجي لابد أن يكون في أعمال الخير ولطاعة الله والرسول ﷺ، وذلك تهذيب لهم وتوجيه لأخلاقهم لأنهم خير أمة أخرجت للناس.

التفسير التحليلي:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ ﴾ أي تسارررتم، والتقييد بالشرط

يشير إلي كراهية التناجي مطلقاً لإبعاد الريب ووساوس الشيطان إلا لضرورة تقتضيه من منفعة عامة للمؤمنين كسر من الأسرار في مصلحة البلاد لا ينبغي أن يطلع عليه إلا القادة، أو خاصة الناس، كالمسارة بستر العورة، أو قضاء حاجة في كشفها حرج لصاحبها، ونحو ذلك، وهو من التناجي بالبر المأمور به في الآية.

وفي المخاطبين بهذه الآية أقوال:

أحدها: أنه خطاب للمؤمنين الخلص وذلك أنه لما ذم اليهود والمنافقين علي التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول أتبعه بأن نهي المؤمنين أن يسلكوا مثل طريقهم وأن يفعلوا كفعلهم فقال: لا تتناجوا بالإثم وهو ما يقبح من القول والعدوان وهو ما يؤدى إلي الظلم ومعصية الرسول وهو ما يكون خلافاً عليه.

والقول الثاني: أن الخطاب لطائفة مخصوصة من ضعاف الإيمان من المسلمين، وأن النهي في الآية ليس علي سبيل التحذير، وإنما هو نهي عن تلك النجوى التي كانت تقارفها تلك الطائفة(١).

وجعل الآية التالية وهي قوله ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ متصلة بهذه الآية علي هذا المعنى.

القول الثالث: أن الخطاب للمنافقين وسموا مؤمنين باعتبار ظاهر أحوالهم(٢).

وظاهر الآية يقول بالقول الأول، وهو أن المراد المؤمنون الخلص وأن الإيمان المراد فيها وفي التي تليها واحد، وهو الإيمان الذي لا تشوبه شوائب النفاق.

ويرد القول الثاني وهو أن المخاطبين هم ضعاف الإيمان، أن المؤمنين في عهد النبي ﷺ وإن كانوا ضعافاً لا يقعون في ما وصف بأنه إثم وعدوان ومعصية للرسول ﷺ، وأن هذه الصفات وصف الله تعالى بها المنافقين واليهود في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾.

ثم إنه لم يرو شيء يدل علي وقوع ذلك منهم، ولو حدث لأثر عنهم.

أما القول الأخير والذي يرى أن المراد المنافقين فيرد عليه أن نداء الإيمان

---

(١) في ظلال القرآن: ٦ / ٣٥١٠.

(٢) انظر روح المعاني: ٢٨ / ٢٧. وتفسير الخازن: ٧ / ٤٩.

من الله تعالى العليم بخبايا النفوس لا يكون إلا للمؤمنين الخلص، ألم تر إلي تصحيحه تعالى قول الأعراب (آمنا)؟ وذلك في قوله عز وجل ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝ ﴾[1].

فكيف يناديهم بصفة الإيمان وهو يعلم حقيقتهم؟ إلا أن يقال: أن المراد بـــ (يا أيها الذين أمنوا) يا أيها الذين قالوا آمنا، أي قالوها بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وفيه تكلف[2].

كما أن توجيه الخطاب للمؤمنين وحثهم علي الإصلاح والخير ونهيهم عن المنكر والعدوان أولي من تقديم النصح للمنافقين.

قوله: (وتناجوا بالبر والتقوى) (البر): هو التوسع في فعل الخير فهو اسم جامع لمعاني الخير. (والتقوى) : الوقاية: وهي حفظ الشيء مما يؤذى ويضر، أي جعل النفس في وقاية مما يخاف، وفي الشرع: حفظ النفس مما يؤثم.

قوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ ﴾ أي واتقوا الله الذي تجمعون إليه يوم القيامة ليجازيكم علي أعمالكم، وهذا التذييل تحذير للمؤمنين من مغبة الوقوع فيما نهاهم عنه.

الآية العاشرة:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ﴾

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن بين المولى عز وجل أن تناجي اليهود والمنافقين بالإثم والعدوان

---

(١) سورة الحجرات: ١٤، ١٥.

(٢) تفسير سورة المجادلة دراسة تحليلية: الدكتور أبو بكر السيد الباز ص ٧٣ – ٧٤.

ومعصية الرسول ﷺ جرم كبير، بين في هذه الآية الدافع والباعث علي هذه النجوى والمزين لها هو الشيطان وأن العلة في ذلك إحزان المؤمنين.

التفسير التحليلي:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ الألف واللام في لفظ (النجوى) للعهد، وهو المعهود السابق وهو النجوى بالإثم والعدوان، ولا يمكن أن يكون للاستغراق، لأن في النجوى مايكون من الله ولله.

و(النجوى) مبتدأ، و (من الشيطان) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، أي نجوى المنافقين الذين يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول سببها الشيطان.

وأفاد الحصر في قوله (إنما) أن الشيطان هو الذي يحملهم علي أن يقدموا علي تلك النجوى التي هي سبب لحزن المؤمنين، وذلك لأن المؤمنين إذا رأوهم متناجين توهموا أن المسلمين أصيبوا في السرايا، أو إذا أجروا اجتماعهم علي مكايدة المسلمين، وربما كانوا يناجون النبي ﷺ فيظن المسلمون أنهم ينقضونهم عند النبي ﷺ[1].

قوله: ﴿ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ هذه العلة ليست قيداً في الحصر فإن للشيطان عللاً أخرى مثل إلقاء المتناجين في الضلالة، والاستعانة بهم علي إلقاء الفتنة، وغير ذلك من ألقيات الشيطان.

وخصت هذه العلة بالذكر لأن المقصود تسلية المؤمنين وتصبيرهم علي أذى المنافقين، ولذلك عقب بقوله ﴿وليس بضارهم شيئا﴾ ليطمئن المؤمنون بحفظ الله إياهم من ضر الشيطان[2].

قوله: ﴿ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي ليوقعهم بإيهامه إياهم في الحزن وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون إلي المؤمنين، ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأي المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين

---

(١) تفسير القرطبي: ١٧ /٢١٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٨ / ٣٤.

خرجوا في السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم فأنزل الله تعالى هذه الآية[١].

وقرأ الجميع (ليَحزُن) بفتح الياء وضم الزاي، إلا نافع فقرأ (ليُحزِن) بضم الياء وكسر الزاي[٢].

وقال صاحب البحر: (ليَحزَن) بفتح الياء والزاي فيكون (الذين آمنوا) فاعلاً.

قوله: ﴿ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أو لا يضرهم التناجي شيئاً إلا بإذن الله.

والباء في قوله (بإذن الله) للسببية.

والمراد بالإذن: أمر التكوين، أي ما كتبه الله علي الإنسان وقدره عليه، كقوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [٣] فيفسره قوله تعالى ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [٤].

قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ذيلت الآية بهذا تنبيهاً علي أن التوكل هو الدواء الناجع من كيد الشيطان ودسه، فإن المؤمنين إذا توكلوا علي الله حق التوكل بأن يستفرغوا وسعهم في التحرز من كيد الشيطان، ويستعينوا بالله علي تيسير ذلك لهم، فإن الله تعالى يحفظهم من كيده. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [٥] وقال سبحانه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [٦].

---

(١) أسباب النزول: للواحدى ص ٢٢٣.

(٢) النشر في القراءات العشر: للحافظ أبى الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزرى ٢ / ٢٤٤ دار الفكر.

(٣) سورة التغابن: ١١.

(٤) سورة الحديد: ٢٢.

(٥) سورة النحل: ٩٩.

(٦) سورة الطلاق: ٣.

الآية الحادية عشرة:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾.

المناسبة بين الآية وما قبلها:

بعد أن بيّن المولى عز وجل أن التناجي بالإثم والمعصية جرم عظيم، وبين لهم أن هذا منهي عنه، وأن التناجي سبب للتباغض والتشاحن، أمرهم بما يجعلهم في تواد ورحمة وتوافق؛ فبيّن لهم أن علي المؤمن أن يوسع لأخيه المؤمن في المجلس وأن ذلك من أسباب المودة والحب والألفة، ومن يفعل ذلك فإن جزاؤه عند الله رفع منزلته في الجنة، وأن العلماء لهم درجات خاصة بسبب علمهم وعملهم، وأن الله يعلم كل شيء.

سبب نزول الآية:

ذكر العلماء في سبب النزول وجوها:

الأول: كان عليه السلام يوم الجمعة في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان يُكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر، وقد سبقوا إلي المجلس، فقاموا حيال النبي ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف رسول الله ما يحملهم علي القيام وشق ذلك علي الرسول ، فقال لمن حوله من غير أهل بدر قم يافلان، ثم يافلان، فلم يزل يقيم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه، وشق ذلك علي من أقيم من مجلسه، وعرفت الكراهية في وجوههم، وطعن المنافقون في ذلك، وقالوا والله ما عدل علي هؤلاء، إن قوماً أخذوا مجالسهم، وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه، فنزلت هذه الآية[1].

الثاني: روي عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس بن الشماس، وذلك أنه دخل المسجد وقد أخذ القوم مجالسهم، وكان يريد القرب من

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٢٧٦ من طريق مقاتل، وذكره الإمام السيوطي في أسباب النزول ص ٧٤٨ – ٧٤٩ تحقيق د / محمد محمد تامر. دار العنان للطباعة والنشر والتوزيع.

الرسول عليه الصلاة والسلام للوقر الذي كان في أذنيه. فوسعوا له حتى قرب، ثم ضايقه بعضهم وجرى بينه وبينهم كلام، ووصف للرسول ﷺ محبة القرب منه ليسمع كلامه، وأن فلاناً لم يفسح له، فنزلت الآية، وأمر القوم بأن يوسعوا ولا يقوم أحد لأحد.

الثالث: أنهم كانوا يحبون القرب من رسول الله ﷺ وكان الرجل منهم يكره أن يضيق عليه فربما سأله أخوه أن يفسح له فيأبى فأمرهم الله تعالى بأن يتعاطفوا ويتحملوا المكروه، وكان فيهم من يكره أن يمسه الفقراء، وكان أهل الصفة يلبسون الصوف ولهم روائح[1].

التفسير التحليلي:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾. هذا نداء من الله تعالى للمؤمنين الذين صدقوا الله ورسوله وآمنوا بكل ماجاء به الرسول ﷺ أن يجيبوا أمر رسول الله ﷺ، فإذا قيل لهم توسعوا في المجالس فليلبوا هذا الأمر.

وقوله: (تَفَسَّحُوا) معناه توسعوا وليفسح بعضكم عن بعض من قوله: افسح عني، أي تنح عني، ولا تتضاموا، يقال: بلدة فسيحة، ومفازة فسيحة، ولك فيه فسحة: أي سعة، وقرئ "في المجلس"قال الواحدي: والوجه التوحيد لأن المراد مجلس النبي ﷺ وهو واحد، ووجه الجمع أن يجعل لكل جالس مجلس علي حدة، أي موضع جلوس.

واختلفوا في المراد بهذه المجالس:

* **فقال بعضهم:** أن المراد مجلس رسول الله ﷺ كانوا يتضامون فيه تنافساً علي القرب منه، وحرصاً علي استماع كلامه وهو قول قتادة ومجاهد والضحاك.

* **وقال آخرون:** أن المراد تفسحوا في مجالس القتال، وهو كقوله تعالى: ﴿

---

(١) تفسير الرازي: ٢٩ / ٢٣٤.

مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾[١]؛ وكان الرجل يأتي الصف فيقول تفسحوا فيأبون لحرصهم علي الشهادة.

* وقيل: كان ذلك في المسجد يوم الجمعة فالمراد التفسح في صلاة الجمعة.

* وقيل: المراد جميع المجالس والمجامع.

والأولي: أن الآية عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، سواء أكان مجلس حرب أم ذكر، أم مجلس يوم الجمعة. فإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه، قال ﷺ: "لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه "[٢].

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه نهي أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا. وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه[٣]. كما روى عن جابر عن النبي ﷺ قال: "لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلي مقعده فيقعد فيه ولكن يقول افسحوا"[٤].

والقاعد في المكان إذا قام حتى يقعد غيره موضعه فيه نظر، فإن كان الموضع الذي قام إليه مثل الأول في سماع كلام الإمام لم يكره له ذلك، وإن كان أبعد من الإمام أكره له ذلك؛ لأن فيه تفويت حظه.

وإذا أمر إنسان إنساناً أن يبكر إلي الجامع فيأخذ له مكاناً يقعد فيه لا يُكره، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع لما روى: أن ابن سيرين كان يرسل غلاماً إلي مجلس له في يوم الجمعة فيجلس له فيه، فإذا جاء قام له منه. وعلي هذا من أرسل بساطاً أو سجادة فتبسط له في موضع من المسجد[٥].

قوله: ﴿ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ فهو مطلق في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان، والرزق، والصدر، والقبر، والجنة.

---

(١) سورة آل عمران: ١٢١.

(٢) رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٦٩) باب (٣١) لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه.

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٧٠) باب (٣٢) (إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا) الآية.

(٤) رواه مسلم في السلام (٢١٧٨) باب (١١) تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذي سبق إليه.

(٥) تفسير الجامع لأحكام القرآن: ٩ / ٢١٥ -٢١٦.

وقد استدل الإمام الرازي رحمه الله بهذه الآية علي أن كل من وسع علي عباد الله أبواب الخير والراحة، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة، ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح في المجلس، بل المراد منه إيصال الخير إلي المسلم وإدخال السرور إلي قلبه(١).

قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ قرأ أهل المدينة والشام وعاصم بضم الشين، وقرأ الآخرون بكسرهما، وهما متواترتان(٢).

والنشوز من نشز، والنشز: الارتفاع، مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها، يقال: نَشَزَ، يَنْشُز، ويَنشِز، والنَّشز: هو مارتفع من الأرض وتنحى.

قال ابن عباس: إذا قيل لكم ارتفعوا فارتفعوا.

واختلف المفسرون في معنى الآية علي أقوال:

الأول: أن المعنى: إذا قيل قوموا من مجلسكم لإخوانكم فقوموا، وذلك علي أن النشوز أخص من التفسح من وجه، فهو من عطف الأخص من وجه علي الأعم منه للاهتمام بالمعطوف، لأن القيام من المجلس أقوى من التفسح من قعود، فذكر النشوز لئلا يتوهم أن التفسح المأمور به تفسح من قعود، لاسيما وقد كان سبب النزول بنشوز، وهو المقصود من نزول هذه الآية علي ماروي في رواية مقاتل.

الثاني: أن المعنى: إذا قيل لكم انشزوا عن بيت رسول الله ﷺ فانشزوا، فإن للنبي ﷺ حوائج.

الثالث: أن المعنى: إذا قيل لكم انهضوا إلي الصلاة والجهاد وعمل الخير فانهضوا.

والأول أولي لمناسبته لسبب النزول، ورجح ابن العربي والقرطبي الثالث لعمومه(٣).

---

(١) تفسير الرازي: ٢٩ / ٢٣٤.

(٢) التفسير البغوي: ٤ / ٣٠٩.

(٣) انظر أحكام القرآن: لابن العربي ١٩٩/٤ – ٢٠٠. وتفسير القرطبي: ١٠ / ٦٧١٤، والتحرير والتنوير: ٢٨ / ٣٩.

قوله: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ بالنصر وحسن الذكر في الدنيا والإيواء إلي غرف الجنان في الآخرة، فيرفع الله سبحانه المؤمن علي من ليس بمؤمن والعالم علي من ليس بعالم. ويرفع الله الذين آمنوا وأوتوا العلم علي الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم.

والمراد بالعلم: العلم الشرعي، ويدخل فيه العلم الدنيوي الذي يتوخى به مصلحة المسلمين ودوام عزة الإسلام، ورفع رايته.

ولما كان النشوز ارتفاعاً عن المكان الذي كان به كان جزاؤه من جنسه.

وتنكير (درجات) للإشارة إلي أنواعها من درجات الدنيا ودرجات الآخرة، وذلك إذا فعلوا ما أمروا به. وقيل: كان أهل الغنى يكرهون أن يزاحمهم من يلبس الصوف فيستبقون إلي مجلس النبي ﷺ فالخطاب لهم.

وقيل: أراد بالذين أوتوا العلم الذين قرؤوا القرآن فبينت الآية الكريمة أن الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان لا بالسبق إلي صدور المجالس.

وقيل: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ﴾ الصحابة.

والعموم أوقع في هذه المسألة وأولي، فيرفع الله المؤمن بإيمانه أولاً، ثم بعلمه ثانياً.

وفي الآية حث علي العلم وطلبه، وعلى الاستزاده منه، قال القاضي: "لا شبهة أن علم العالم يقتضى لطاعته من المنزلة مالا يحصل للمؤمن، ولذلك فإنه يقتدي بالعالم في كل أفعاله، ولا يقتدي بغير العالم، لأنه يعلم من كيفية الاحتراز عن الحرام والشبهات ومحاسبة النفس مالا يعرفه الغير، ويعلم من كيفية الخشوع والتذلل في العبادة مالا يعرفه غيره، ويعلم من كيفية التوبة وأوقاتها وصفاتها مالا يعرفه غيره، ويتحفظ فيما يلزمه من الحقوق مالا يتحفظ منه غيره، وفي الوجوه كثرة، لكنه كما تعظم منزلة أفعاله من الطاعات في درجة الثواب، فكذلك يعظم عقابه فيما يأتيه من الذنوب، لمكان علمه حتى لا يمتنع في كثير من صغائر غيره أن يكون كبيرا منه "[1]

قوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هنا يقرر المولى عز وجل حقيقة، وهي أنه

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٩ /٢٣٥.

عز وجل خبير بأعمال الناس، لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فيعلم المطيع والعاصي والمؤمن والكافر فسيحاسب كلا بما عمل، وفي هذا تهديد لمن لم يمتثل بأوامر الله عز وجل التي منها التفسح في المجالس رحمة وألفة بين عباد الله.

ذكر الإمام الآلوسي رحمه الله أن قوله (تعملون) قرأ بالتحتانية، أي: (يعملون)[١].

وقد ورد في الأثر أن الصحابة ﷺ كانوا يقدمون العلماء في كل أمر ومن ذلك.

* أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يقدم عبد الله بن عباس علي الصحابة، فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه، وسأله عن تفسير ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝﴾ فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله إياه، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم. [٢]

* وفي البخاري عن عبد الله بن عباس قال: قدم عيينه بن حصن بن حذيفة بن بدر فنزل علي ابن أخيه الحُرُ بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً[٣].

* وفي صحيح مسلم أن نافع بن عبد الحارث لقى عمر بعُسْفَان وكان عمر يستعمله علي مكة فقال: من استعملته علي أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. فقال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولي من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولي! قال: إنه قارئ لكتاب الله وإنه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين "[٤].

* وروى عن النبي ﷺ أنه قال: "بين العالم والعابد مائة درجة بين كل

---

(١) تفسير روح المعاني: ٢٨ / ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٧٠) باب (٤) قوله تعالى (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) بلفظ قريب.

(٣) المرجع السابق.

(٤) رواه مسلم في المسافرين (٨١٧) باب (٤٧) فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه.

درجتين حَضْر لجواد المُضَمَّر سبعين سنة "[١].

* وعنه ﷺ: "فضل العالم علي العابد كفضل القمر ليلة البدر علي سائر الكواكب "[٢].

* وعن ابن عباس: خُيِّر سليمان عليه السلام بين العلم، والمال، والملك، فاختار العلم فأُعْطِيَ المال والملك معه[٣].

الآية الثانية عشرة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

سبب النزول:

روى في نزول الآية الكريمة عدة أسباب:

أولها: أنها نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل علي رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله عز وجل أن يخفف عن نبيه ﷺ، فلما قال ذلك كف كثير من الناس، ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها وهو مروى عن ابن عباس وقتادة.

ثانيها: مارواه الحسن أنها نزلت بسبب أن قوماً من المسلمين كانوا يستخلون بالنبي ﷺ ويناجونه، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى – أي يجورون علي حقهم في ذلك – فشق عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استحلاله.

ثالثها: مارواه زيد بن أسلم أنها نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا

---

(١) ذكره الحافظ بن حجر في "الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف "ص١٦٥. والعجلوني في "كشف الخفا ". (١١٢/٢) . والحضر: بضم الحاء المهملة ارتفاع الفرس في عدوه، والجواد: الفرس السريع السير، وتضمير الفرس: أن تعلفه حتى يسمن ثم ترده إلي القوت، وذلك في أربعين يوماً، والمضمار: الموضع يضمر فيه الخيل وغاية الفرس في السباق. تفسير روح المعاني: ٩/ ٣٢٩.

(٢) جزء من حديث رواه الترمذى في العلم (٢٦٨٢) باب (١٩) ماجاء في فضل الفقه علي العباده. وابن ماجه في المقدمة (٢٢٣) باب فضل العلماء والحث علي طلب العلم. وإسناده لا يخلو من مقال.

(٣) تفسير القرطبي: ١٧ / ٢١٩.

يناجون النبي ﷺ ويقولون: أنه أذن، يسمع كل ما قيل له، وكان لا يمنع أحداً مناجاته، فكان ذلك يشق علي المسلمين، لأن الشيطان كان يلقى في أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعاً اجتمعت لقتاله، قال: فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ..﴾. فلم ينتهوا، فأنزل الله هذه الآية فانتهي أهل الباطل عن النجوى، لأنهم لم يقدموا بين نجواهم صدقة، وشق ذلك علي أهل الإيمان وامتنعوا عن النجوى لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بما بعد الآية.

رابعها: ما رواه مقاتل أنها نزلت في الأغنياء، وذلك أنهم كانوا يأتون النبي ﷺ فيكثرون مناجاته، ويغلبون الفقراء علي المجالس حتى كره رسول الله ﷺ ذلك من طول جلوسهم ومناجاتهم، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية، وأمر بالصدقة عند المناجاة، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئا، وأما أهل الميسرة فبخلوا، واشتد ذلك علي أصحاب النبي ﷺ فنزلت الرخصة[1].

وهذه كلها روايات سائغة في بيان سبب النزول.

مناسبة الآية لما قبلها:

كانت تتحدث الآية السابقة عن تنافس المؤمنين في الجلوس قرب رسول الله ﷺ لمناجاته، وأكثروا في ذلك، وتعاظم هذا الأمر، وشق علي رسول الله ﷺ وأصبح وقت رسول الله ﷺ مشغولاً بهم، ونسوا أنه رسول وبشر ويجب أن يكون وقته مقسماً بين إبلاغ الرسالة والعبادة والقيام بشئون الحياة التي يحتاج إليها كل بشر. لذلك نزلت هذه الآية لتُحد من المضارة التي كان يتعرض لها رسول الله، ولتُعلم الناس بعض الآداب الإسلامية.

فأمرت الآية الناس بوجوب تقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول ﷺ.

التفسير التحليلي:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ ﴾ أي إذا أردتم مناجاة الرسول

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠ /٦٧١٦ – ٦٧١٧. جامع البيان: ٢٨ / ٢٤ – ٢٥، وأحكام القرآن لابن العربي: ٤ /٢٠٢. أسباب النزول للواحدي: ص ٢٦٢ :٢٦٣. أسباب النزول للسيوطي: ص ٧٤٧.

والمناجاة: الحديث، وأصل معناها: المسارة، وعبر عنها بالمناجاة لأنها كانت ضرباً من الاستحواذ علي الجلسة والاستئثار بالحديث مع النبي ﷺ بما يوهم المسارة.

فقوله: ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ أي فاعطوا رسول الله ﷺ قبلها صدقة، وفي الكلام استعارة تمثيلية لأن أصل التركيب يستعمل فيمن له يدان، أو مكنية بتشبيه النجوى بالإنسان، وإثبات اليدين تخييل(١).

ولا تعارض بين الآية الكريمة وحديث النبي ﷺ "أن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد"(٢) لأن هذه الصدقة المذكورة في الآية لم تكن للرسول ﷺ وإنما كانت للفقراء من المسلمين.

وقد ذكر الإمام الرازي لهذا التكليف فوائد:

أولها: إعظام الرسول ﷺ وإعظام مناجاته فإن الإنسان إذا وجد الشيء مع المشقة استعظمه، وإن وجده بالسهولة استحقره.

ثانيها: نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة المقدمة قبل المناجاة.

ثالثها: يحتمل أن يكون المراد منه التخفيف علي النبي ﷺ، لأن أرباب الحاجات كانوا يلحون علي الرسول، ويشغلون أوقاته التي هي مقسومة علي الإبلاغ إلي الأمة وعلي العبادة، ويحتمل أنه كان في ذلك مايشغل قلب بعض المؤمنين، لظنه أن فلاناً إنما ناجى رسول الله ﷺ لأمر يقتضى شغل القلب فيما يرجع إلي الدنيا.

رابعها: أنه يتميز به محب الآخرة عن محب الدنيا، فإن المال محك الدواعي(٣).

والظاهر أن الأمر بقوله (فقدموا) للوجوب، وهو قول الجمهور، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فظاهره التأثم بالترك، ولا يتأثم بترك شيء إلا إذا كان واجباً.

---

(١) انظر روح المعاني: ٢٨ / ٣٠. وتفسير أبى السعود: ٨ / ٢٢٠.

(٢) صحيح مسلم: كتاب: الزكاة، باب: ترك استعمال آل النبي ﷺ علي الصدقة ٢ /١٨٤.

(٣) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٩ / ٢٣٥ : ٢٣٦.

وكذلك قوله في الآية اللاحقة ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

وقيل: هو للندب، واحتجوا عليه بوجهين:

الأول: أنه تعالى قال ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾، وهذا إنما يستعمل في التطوع لا في الفرض.

الثاني: أنه لو كان للوجوب لما أزيل وجوبه بكلام متصل به، وهو قوله (ءَأَشْفَقْتُمْ) .

والجواب علي الأول: أن المندوب كما يوصف بأنه خير وأطهر فالواجب أيضاً يوصف بذلك.

وعلي الثاني: بأنه لا يلزم من كون الآيتين متصلتين في التلاوة كونهما متصلتين في النزول[1].

وروى أن علياً ﷺ هو من عمل بهذه الآية ولم يعمل بها أحد غيره.

فعن مجاهد: أن أول من تصدق في ذلك علي بن أبي طالب ﷺ، وناجى النبي ﷺ. روى أنه تصدق بخاتم. وذكر القشيري وغيره عن علي بن أبى طالب أنه قال: في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدى، وهي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ كان لي دينار فبعته، فكنت إذا ناجيت الرسول ﷺ تصدقت بدرهم حتى نفد، فنسخت بالآية الأخرى. [2] ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾.

وقد اختلف العلماء في وقت تشريع هذه الصدقة فقيل: أنها شرعت بعد الزكاة، فتكون الحكمة اغناء الفقراء من خلال العام، لأن الزكاة تدفع في رؤوس السنين، وفي معين الفصول، فلعل ما يصل إلي الفقراء منها يستفيدونه قبل حلول وقت الزكاة القابلة.

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ٢٩ / ٢٣٦.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير (٣٣٠٠) باب(٥٨) ومن سورة المجادلة.

وظاهر الآية التي بعدها؛ وهو قوله تعالى ﴿ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أن الزكاة حينئذ شرع مفرد معلوم.

وقيل: عن ابن عباس ﷺ أن صدقة المناجاة شرعت قبل تشريع الزكاة، ونسخت بوجوب الزكاة.

قال صاحب التحرير والتنوير: ولعل مراده من ذلك إن صح عنه أنها نسخت بالاكتفاء بالزكاة[١].

وقد تضافرت أقوال المفسرين على أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [٢].

وقد ورد في أسانيد عديدة أن هذه الآية لم يدم العمل بها إلا زمناً قليلاً: إنه عشرة أيام، وقيل: كان ساعة من نهار.

قوله: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ ذلك: إشارة إلى التقديم المفهوم من قوله (قدموا). (خير لكم) يجوز أن يكون أفعل تفضيل أصله أخير، أي أشد خيرية، ويقويه صيغة أفعل التفضيل التي عقبته، قول (وأطهر) يجوز أن يكون اسماً على وزن أفعل، وهو مقابل الشر. والطهر هنا معنوي وهو طهر النفس وزكاؤها[٣].

وقال ابن العربي بأن هذه الآية مع الآية التي عقبتها ناسخة لها نص متواتر في الرد على المعتزلة فيما ذهبوا إليه من وجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى فإنه سبحانه نسخ حكم التصدق قبل المناجاة مع كونه خيراً وأطهر[٤]

قوله:﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا ﴾ أي فإن لم تجدوا ماتتصدقون به ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لمناجاتكم بغير صدقة، (رحيم) بكم إذ لم يكلفكم مالا تطيقون.

وفي الآية إشعار بأن في المناجاة بدون تصدق ذنباً، لأن الغفران لايكون إلا عن ذنب، ومفاده وجوب الإقلال منها لما قد يكون فيها من إيذاء للنبي ﷺ

---

(١) انظر التحرير والتنوير: ٢٨ / ٤٣.

(٢) انظر جامع البيان للطبرى: ٢٨ / ١٤، ١٥.

(٣) تفسير سورة المجادلة: د / أبو بكر الباز ص١٠٦.

(٣) انظر أحكام القرآن: ٤ / ٢٠٣.

والمسلمين فهم إما يكثرون منها، وفي ذلك مشقة على النبي ﷺ، وإما يوهمون الجالسين غير المناجين أنهم أقل حظوة عند النبي ﷺ، وإما يجورون على حق غيرهم في النجوى إن كانوا من المكثرين منها، وإما أن تكون مناجاتهم مدخلاً من مداخل الشيطان في قلوب المؤمنين، كأن يلقى في أنفسهم - إذا كان المناجون من المنافقين - أن هذه المناجاة بشان جموع اجتمعت للإغارة على المسلمين.

الآية الثالثة عشرة:

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما شرع الله عز وجل تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وميز المخلص من المنافق. وبذلك تحقق الغرض والحكمة من هذا الأمر وخص الله في مناجاة الرسول ﷺ بدون تقديم الصدقة لعلم الله تعالى بمشقة هذا الأمر عليهم، فخفف سبحانه عنهم ورفع الحرج بهذه الآية فهي تتعلق بسابقتها تعلق الناسخ بالمنسوخ.

السبب في نزول الآية:

روى الترمذي بسنده عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: (لما نزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ قال لي النبي ﷺ: ماترى؟ ديناراً؟ قلت: لا يطيقونه، قال: "فنصف دينار؟ "قلت: لا يطيقونه، فقال: "فكم؟ "قلت: شعيرة، قال: "إنك لزهيد "قال: فنزلت ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ﴾ الآية. قال: "فبي خفف الله عن هذه الأمة).

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه. ومعنى قوله: شعيرة: يعني وزن شعيرة من ذهب. ومعنى قوله: "إنك لزهيد ": إنك قليل المال فقدرت على حسب حالك.

واتفق المفسرون على أن هذه الآية ناسخة لسابقتها، وأنكر ذلك أبو مسلم جرياً على مذهبه في عدم وقوع النسخ.

الفقراء، وفيه ضرب من التوبيخ.

والمعنى: أأشفقتم: أي خفتم تقديم الصدقات قبل المناجاة لما اعتقدوه بأنه يودى بهم إلى الفقر والحاجة ولما يعدهم الشيطان عليه من الفقر.

قوله: (صدقات) قيل إن الجمع هنا باعتبار المخاطبين، قال الإمام الآلوسي: (وهذا على القول بالوجوب، محمول على أنه لم يتفق للأغنياء، مناجاة في مدة بقاء الحكم)[1].

وقيل: إن مفعول (أأشفقتم) محذوف، و (أن) على إضمار حرف التعليل، ويجوز أن يكون المفعول (أن تقدموا) فلا حذف أي أخفتم تقديم الصدقات لتوهم ترتب الفقر عليه؟!

وجمع الصدقات لما أن الخوف لم يكن في الحقيقة من تقديم صدقة واحدة لأنه ليس مظنة الفقر بل من استمرار الأمر.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (فإذ) الفاء لتفريع مابعدها على الاستفهام العتابي، و (إذ) ظرفية مفيدة للتعليل، أي: فحين لم تفعلوا ما شق عليكم فأقيموا.

وما تتعلق به (إذ) محذوف دل عليه قوله ﴿ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ تقديره: خففنا عنكم وأعفيناكم من أن تقدموا صدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ، والفاء في قوله (فأقيموا) عاطفة مابعدها على الكلام المقدر، أي فحافظوا على التكاليف الأخرى وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله فذلك لا تسامح فيه.

والتوبة: الرجوع. فيقال: تاب إلى الله أي رجع عن المعصية، وتاب الله عليه: أي رجع به من التشديد إلى التخفيف، كما في هذه الآية.

قال أبو السعود: "فيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه لما رأي منهم من الانفعال ماقام مقام توبتهم، و(إذ) على بابها من المضى. وقيل: بمعنى إذا كما

---

(١) تفسير الآلوسي: ٢٨ / ٣١.

في قوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ ﴾[١]، وقيل: بمعنى: أن[٢].

قوله تعالى: ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ أي: إذا لم تستطيعوا أن تقدموا الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ فأدوا الصلاة حق أدائها من الخشوع والتأني والإخلاص والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي ولما في الزكاة من تطهير للنفوس من داء الشح الدافع إلى حب المال وارتكاب الجرائم للوصول إليه وإطاعة الله فيما أمر ونهي وإيتاء الفرائض والبعد عن النهي. فإن ذلك يكفيكم عوضاً عن تقديم الصدقة قبل المناجاة.

قال الإمام الآلوسي رحمة الله عليه: "وعدل عن "فصلوا" إلى "فأقيموا" ليكون المراد المثابرة على توفيه حقوق الصلاة ورعاية مافيه كما لها، لا على أصل فعلها فقط.. ولم يقل "وزكوا" لئلا يتوهم أن المراد تزكية النفس"[٣].

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قال الإمام الشوكاني رحمه الله "لا يخفي عليه من ذلك شيء فهو مجازيكم. وليس في الآية مايدل على تقصير للمؤمنين في امتثال هذا الأمر، أما الفقراء منهم فالأمر واضح. وأما من عداهم من المؤمنين فإنهم لم يكلفوا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصدقة بل أمروا بالصدقة إذا أرادوا المناجاة، فمن ترك المناجاة فلا يكون مقصراً في امتثال الأمر بالصدقة، على أن في الآية مايدل على أن الأمر للندب.

الآية الرابعة عشر:

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

بيان المناسبة:

لما بين سبحانه فيما سبق حالاً من أحوال المنافقين من مقارفة النجوى التي تحزن المؤمنين أردف ببيان حال أخرى تبين ماهم عليه من سوء النية وقبح الخلق.

---

(١) سورة غافر: ٧١.

(٢) تفسير أبو السعود: ٥ / ٦٩٨، وانظر الآلوسي: ٢٨ / ٣١.

(٣) تفسير روح المعاني: ٢٨ / ٣١.

ووجه التعجب من حالهم أنهم تولوا قوماً من غير جنسهم وليسوا على دينهم، وما حملهم على توليهم إلا اشتراك الفريقين في عداوة الإسلام والمسلمين.

قوله ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ ضمير (ماهم) يعود على (الذين تولوا) وهم المنافقون.

والخطاب في قوله (منكم) للمؤمنين، والضمير في (منهم) يعود على (قوما غضب الله عليهم) وهم اليهود.

وجملة (ماهم منكم ولا منهم) حال من الضمير في (تولوا). والمعنى: تولى المنافقون اليهود والحال أن المنافقين ليسوا منكم أيها المؤمنون، وليسوا من اليهود، فهم لا يستقرون على حال، كما قال تعالى: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾[1]، وكما قال ﷺ: "مثل المنافق كمثل الشاة العائرة[2] بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة"[3] لأنه مع المؤمنين بقوله، ومع الكافرين بقلبه.

وجوز ابن عطية أن يكون (هم) للقوم، وضمير (منهم) للذين تولوا، ثم قال: "فيكون فعل المنافقين على هذا أخص، لأنهم تولوا مغضوباً عليهم ليسوا من أنفسهم فيلزمهم ذمامهم ولا من القوم المحقين فتكون الموالاة صواباً".

والأول هو الظاهر والجملة عليه مستانفة، وجوز كونها حالاً من فاعل (تولوا) ورد لعدم الواو، وأجيب بأنهم صرحوا بأن الجملة الإسمية المثبتة أو المنفية إذا وقعت حالاً تأتى بالواو فقط وبالضمير فقط وبهما معا، و(ما) ههنا أتت بالضمير أعنى (هم)، وعلى ما قاله ابن عطية: وفي موضع الصفة لقوم[4].

ويقول الدكتور أبو بكر الباز رحمة الله عليه: "وهذا القول لا يقل حسناً عن سابقه، أما قضية عود الضمائر فلا أرى اختلالاً في عودها إلى مراجعها على هذا القول، والضمير في قوله (غضب الله عليهم) يعود على اليهود، ثم عقبه قوله

---

(١) سورة النساء: من الآية ١٤٣.

(٢) العائرة: المترددة الحائرة، وتعير تذهب وتتردد بين قطيعين.

(٣) صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ٤ / ٤٥٢.

(٤) تفسير روح المعاني: ٢٨ / ٣٢.

(ماهم) فعاد على اليهود أيضاً، وهم أقرب مذكور، والقاعدة على عود الضمير إلى أقرب مذكور، مالم تكن هناك قرينة تصرفه إلى الأبعد، ولا قرينة ههنا. ولا أرى بأساً بعود الضمير على مراجع مختلفة إذا كانت ظاهرة لا لبس فيها، والمعنى عليها سائغ قوى "(١).

قوله ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ عطف على (تولوا)، وجيء به مضارعاً للدلالة على تجدده، ولاستحضار الحالة العجيبة حين حلفهم على الكذب للتنصل مما فعلوه وللدلالة على أن هذه الصفة متأصلة فيهم ملازمة لهم لا تنفك عنهم.

والكذب: الخبر المخالف للواقع، والمراد بالأخبار المكذوبة تلك التي كانوا يخبرون بها عن أنفسهم في نفي مايصدر منهم في جانب المسلمين.

وتبين الآية الكريمة أنهم كانوا يستعملون الأيمان للتنصل من أقوالهم وأفعالهم التي ماقصدوا بها إلا إيقاع الضرر بالمسلمين، وهذا ديدنهم، يعرف من سورة التوبة وغيرها من مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾(٤).

وفي الآية الكريمة دلالة أيضاً على أن الكذب يعم ما يعلم المخبر عدم مطابقته للواقع ومالا يعلمه.

---

(١) تفسير سورة المجادلة، د / أبو بكر الباز ص١١٧، ١١٨.

(٢) سورة التوبة: من الآية ٥٦.

(٣) سورة التوبة: من الآية ٦٢.

(٤) سورة التوبة: من الآية ٧٤.

الآية الخامسة عشرة:

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

بينت الآية السابقة موالاة المنافقين لليهود الذين هم أعداء الإسلام والمسلمين ثم جاءت هذه الآية تبين جزاءهم في الدنيا والآخرة.

التفسير التحليلي:

قوله تعالى: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ أي بسبب توليهم الكفار وكذبهم وحلفهم بالباطل هيأ المولى لهم عذاباً أليماً يوم القيامة.

قوله: ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أي نوعاً من العذاب متفاقماً بلغ القصوى في غايته وهو عذاب شديد في جهنم في الدرك الأسفل من النار.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ هو تنديد بسوء صنيعهم وقبح سلوكهم، ولذا أعد لهم العذاب الشديد المهين. والجملة تعليلية للجملة التي قبلها.

قال القرطبي رحمه الله: "عن معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بئس الأعمال أعمالهم"[1] أي ما اعتادوا عمله وتمرنوا عليه من الأعمال القبيحة.

الآية السادسة عشر:

قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

بينت الآيتان السابقتان أمر المنافقين وموالاتهم لليهود وتوعد الله لهم بالعذاب الشديد ثم جاءت هذه الآية لتبين قصر نظرهم وفساد عقولهم حيث اتخذوا أيمانهم جُنَّة يستجنون بها من القتل وغفلوا عن شدة عذاب الله لهم في الآخرة.

التفسير التحليلي:

قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ الجنة في اللغة: هي ما يستر ويطلق على

---

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٣٠٤.

المجن وهو ما يستر الجسد من حلق الحديد اتقاء لحد السيف ونحوه، وتطلق على الجان لأنه مستور ولا نراه، كما تطلق على الجنة ففيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، والمجنون من غاب عقله.

وفي الاصطلاح: الوقاية والسترة.

وفي قوله ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ ﴾ تشبيه مؤكد بحذف الأداة، أي اتخذوا أيمانهم كالجُنة.

والتعبير بالجُنة يوحي بحرب دائرة بين المسلمين والمناقين، اتخذ المنافقون فيها أيمانهم دروعاً تحميهم من ضربات المسلمين، فكلما وقعوا في ورطة من أفعالهم وأقوالهم اتقوا ذلك بالأيمان. وهذا يدل على شوكة الإسلام وقوته وعلى شدة ضعفهم، وأنهم لا يملكون سلاحاً غير هذه الأيمان، فيضطرون إليها أذلاء مرتجفين يستولى عليهم الفزع والرعب(١).

قال صاحب الظلال: "وهذه الحملة القوية على المنافقين الذين يتولون قوماً غضب الله عليهم – وهم اليهود – تدل على أنهم كانوا يمعنون في الكيد للمسلمين، ويتآمرون مع ألد أعدائهم عليهم، كما تدل على أن سلطة الإسلام كانت قد عظمت بحيث يخافها المنافقون فيضطرون عند مايواجههم رسول الله ﷺ والمؤمنون بما يكشفه الله من تدابيرهم ومؤامراتهم إلى الحلف بالكذب لإنكار ما ينسب إليهم من مؤامرات وأقوال، وهم يعلمون أنهم كاذبون في هذه الأيمان، إنما هم يتقون بأيمانهم ما يتوقعونه من مؤاخذتهم بما ينكشف من دسائسهم للصد عن سبيل الله "(٢).

وقرئ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ ﴾ بالكسر أي إيمَانَهُم الذي أظهروه للنبي ﷺ(٣).

والاتخاذ على هذا عبارة عن التستر بالفعل كأنه قيل: تستروا بما أظهروه من الإيمان عن أن تستباح دماؤهم وأموالهم، وعلى قراءة الجمهور عبارة عن إعدادهم لأيمانهم الكاذبة وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويخلصوا عن المؤاخذة لا

---

(١) تفسير سورة المجادلة، د / أبو بكر الباز ص ١٢١، ١٢٢.

(٢) تفسير في ظلال القرآن: سيد قطب ٦ / ٣٥١٣.

(٣) تفسير البيضاوي: ٢ / ٤٧٧.

عن استعمالها بالفعل فإن ذلك متأخر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجنابة، وعن سببها أيضاً كما يعبر عنه الفاء في قوله تعالى (فصدوا)[١].

قوله ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي فصدوا الناس ومنعوهم (عن سبيل الله) عن طريق الله إما بتثبيط من قوى عن الدخول في الإسلام، وإما بتضعيف أمر المسلمين عند الراغبين في الدخول فيه، وإما بصدهم المؤمنين عن الجهاد[٢].

والفاء للتفريع على اتخاذهم الأيمان جُنَّة، أي ماكانوا يفعلون ذلك إلا للصد عن دين الله وذلك بما يختلقونه من أكاذيب يلصقونها بالإسلام والمسلمين.

﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي فاستحقوا العذاب المهين لأن ضرر فعلهم قد تعداهم إلى غيرهم بتدميرهم الخير في قلوب من أرادوا أن يهتدوا إلى الحق، وإيائهم إلا أن يعيشوا معهم في ظلمات الكفر والضلالة.

وحمل بعض المفسرين العذاب هنا على أنه عذاب الآخرة بينما حملوا العذاب في قوله ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [٣]. على عذاب القبر لئلا يلزم التكرار.

وقال آخرون: المراد من الكل عذاب الآخرة، وهو كقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [٤].

وذهب الدكتور أبو بكر الباز إلى أن العذاب الشديد يكون للأجساد وإن كان يشمل الإيلام النفسي، المهين للأنفس وإن كان يشمل الإيلام الجسدي[٥].

---

(١) تفسير روح المعاني: ٢٨ / ٣٣.

(٢) تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل: للإمام محيى السنة أبى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، إعداد وتحقيق: خالد عبد الرحمن العك وآخرون ٤/ ٣١١ دار الزهراء للنشر والتوزيع، الرياض دار المعرفة للطباعة والنشر الطبعة الخامسة ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢م.

(٣) سورة المجادلة: آية ١٥.

(٤) سورة النحل: آية ٨٨.

(٥) تفسير سورة المجادلة :د / أبو بكر الباز ص ١٢٣.

الآية السابعة عشر:

﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما بيَّن سبحانه في الآية السابقة أن أيْمَان المنافقين لم تقهم عذاب جهنم بين في هذه الآية أن أموالهم وأولادهم كذلك لن تقيهم ولن تغنى عنهم من عذاب الآخرة.

سبب النزول:

رُوى عن سعيد بن جبير أن ابن عباس ﷺ حدثه أن رسول الله ﷺ كان في ظل حجرة من حجره، وعند نفر من المسلمين، قد كان الظل يقل عنهم، فقال لهم: "إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا آتاكم فلا تكلموه "فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ وكلمه فقال: "علام تشتمنى أنت وفلان وفلان؟ - نفر دعاهم بأسمائهم - فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا بالله واعتذروا إليه فأنزل الله تعالى: (يوم يبعثهم الله جميعا) الآية[1].

التفسير التحليلي:

قوله تعالى: ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم ﴾ أي: لن تنفعهم أموالهم التي أعدوها لدفع المضار وجلب المصالح وصنع العدة والعتاد. ولا أولادهم الذين يتناصرون بهم في الأمور المهمة، ويعولون عليهم في الملمات الصعبة.

ووجه تقديم الأموال على الأولاد:

* أن الأموال بها يقتنى المرء مايشاء من قصور وزراعات وتجارات وعدة وعتاد، وبها تشترى الذمم الخربة، وبها يساوم الفقراء فيقبلون بسلطان صاحبها وشروطه لشدة حاجتهم، وهي التي يفزع إليها عند نزول الخطوب، وهي التي ينبني عليها العز الزائل في الدنيا.

* أما الأولاد من غير الأموال فيكونون عبئاً على أبيهم، ولا يغيثونه بشيء

---

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص ٢٦٣. والحاكم في المستدرك وصححه ٢ / ٤٨٢. وسكت عنه الذهبى. ورواه أحمد ١ / ٢٤٠.

من غير عدة.

* ثم أن الأولاد تبتغى بالأموال، فمن لا يملك مهراً لا يستطيع الزواج، ومن ثم لا يكون له أولاد.

* والأموال تكون للمرء قبل الأولاد، فهو يسعى في شبابه لجلبها ثم يتزوج وينجب.

* كما أن تقديمها يدل على اعتزازهم بالأموال، وأنها كانت سبب شرفهم في أهليهم وسيادتهم عليهم، وذلك يتناسب مع ما كان عليه المنافقون من الثراء.

قوله (من الله) أي من عذابه تعالى، و (من) لابتداء الغاية، وهو قول المبرد، و (شيئاً) نائب عن المفعول المطلق، أي شيئاً من الإغناء[١].

ويجوز أن تكون (من) للتبعيض. و (شيئاً) مفعولاً به لما في (أغنى) من معنى الدفع، أي لا تدفع عنهم من بعض عذاب الله شيئا، وهو الذي قرره صاحب البحر[٢].

ويجوز أن تكون بمعنى (عند) كما قاله أبو عبيدة، وجعله كقوله ﴿ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [٣]، قال ذلك معناه عند جوع وعند خوف، وعقب عليه صاحب البحر بقوله: "وكون (من) بمعنى عند ضعيف جداً "[٤].

وعند الزمخشري أن (من) بمعنى بدل، وأن قوله (من الله) معناه بدل رحمة الله. قال: "(من) في قوله (من الله) مثله.

قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [٥]، والمعنى: لن تغنى عنهم من رحمة الله أو من طاعة الله (شيئاً) أي بدل رحمته وطاعته وبدل الحق، ومنه "ولا ينفع ذا

---

(١) تفسير حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين: للعلامة الشيخ أحمد الصاوي المالكي ٤ / ١٨٤ طبعة دار الفكر.

(٢) انظر البحر المحيط: ٢ / ٤٠٤ : ٤٠٥.

(٣) سورة قريش: آية ٤.

(٤) البحر المحيط: ٢ / ٤٠٤ : ٤٠٥.

(٥) سورة النجم: آية ٢٨.

الجد منك الجد "أي لا ينفعه جده وحظه من الدنيا بدلك، أي بدل طاعتك وعبادتك وما عندك "[١].

وعقب عليه صاحب البحر بأن أكثر النحاة ينكرون أن تكون (من) للبدل إذا كان معناها على غيره أظهر، كما هو ههنا، والقول بأنها للتبعيض أظهر، لأنه أليق بتهويل أمر الكفرة وأنسب لذلك[٢].

وعلق عليه الآلوسي بقوله: "ونفي ذلك سبحانه مع أن احتمال سد أموالهم وأولادهم مسد رحمة الله تعالى وطاعته عز شأنه مما يبعد، بل لا يكاد يخطر ببال حتى يتصدى لنفيه إشارة إلى أن هؤلاء الكفار قد ألهتهم أموالهم وأولادهم عن الله تعالى والنظر فيما ينبغي له إلى حيث يخيل للرائي أنهم ممن يعتقد أنها تسد مسد رحمة الله تعالى وطاعته "[٣].

وإقحام حرف النفي في المعطوف على المنفي لتوكيد انتفاء الإغناء.

قوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾. أولئك اسم إشارة يشير إلى المنافقين الذين اتخذوا أيمانهم جُنَّة، أو إليهم وإلى الذين تولوهم.

﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ الصحبة: تطلق على مطلق الاقتران، والغالب في العرف أن تطلق على الملازمة، والمراد بها هنا أنهم ملازموها لا ينفكون عنها ولا تنفك عنهم.

﴿ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ تأكيد للملازمة، ودفع لما قد يتوهم من جواز انفكاك الملازمة، كما ينفك الصاحب عن صاحبه في الدنيا أحيانا.

وعليه فالجملة مفسرة لما أبهم في قوله ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ ففسر بأن هذه الصحبة لا يراد بها مطلق الاقتران بل الخلود، وتكون على هذا لا موضع لها من الإعراب.

ويحتمل أن تكون حالية كما جاء في قوله تعالى ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا

---

(١) تفسير الكشاف: ١ ص/ ١٧٦.

(٢) انظر تفسير البحر المحيط: ٢ / ٤٠٥.

(٣) تفسير روح المعاني: ٣ / ٩٣.

خَٰلِدُونَ ﴾، وصاحب الحال (أصحاب)، وقيل: (النار) لأن في الجملة ضميراً يعود عليها، ويكون العامل في الحال معنى الإضافة أو اللام المقدرة.

ويحتمل أن تكون خبراً ثانياً لـــ (أولئك)[١]، وتفصيل ذلك أن يقال: (أولئك) مبتدأ أول، خبره (أصحاب النار)، و (هم) مبتدأ ثان وخبره (خالدون) و (فيها) متعلق بـــ (خالدون)، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر ثان للمبتدأ الأول.

الآية الثامنة عشر:

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

تبين الآية الكريمة حال المنافقين يوم القيامة وهي كحالهم التي كانوا عليها في الدنيا قبل مماتهم، لأن من مات على شيء يُبعث عليه، وكما كان المنافقون في الدنيا يحلفون على الكذب فهم يوم القيامة يتجاسرون على الكذب ويحلفون كما كانوا يحلفون في الدنيا.

سبب النزول:

روى أن رجلاً منهم قال: "لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا"[٢].

التفسير التحليلي:

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ (يوم) ظرف لقوله تعالى (لهم عذاب مهين) والمعنى: واذكر لهم يامحمد حالهم يوم القيامة يوم يبعثهم الله من قبورهم أحياء كهيئتهم قبل مماتهم (فيحلفون له) أي يحلفون لله حين يسألهم عما اقترفوه في الدنيا وعن نفاقهم وأيمانهم التي كانوا يحلفونها كذباً ويقولون: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [٣].

قال الإمام الآلوسي رحمه الله: "والتشبيه بمجرد الحلف لهم في الدنيا وإن

---

(١) انظر البحر المحيط: ١ /٣٢٤، وإملاء مامن به الرحمن: ٢ / ٢٥٩.

(٢) تفسير أبو السعود: ٥ / ٦٩٩.

(٣) سورة الأنعام: ٢٣.

اختلف المحلوف عليه بناءاً على ماقدمنا من سبب النزول[١].

قال تعالى: ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي يظنون يومئذ أن حلفهم يفيدهم، ويدفع عنهم في الآخرة كما كان يدفع عنهم في الدنيا.

و (على) للاستعلاء المجازى، وهو شدة التلبس بالوصف كقوله ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [٢] والمعنى أنهم لشدة توغلهم في النفاق ظنوا يوم القيامة أنه يمكنهم ترويج كذبهم بالأيمان الكاذبة على علام الغيوب، فكان هذا الحلف الذميم يبقى معهم أبداً، وإليه الإشارة بقوله ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [٣]. قال الجبائي والقاضي: "إن أهل الآخرة لا يكذبون، فالمراد من الآية أنهم يحلفون في الآخرة أنا ماكنا كافرين عند أنفسنا، وعلى هذا الوجه لا يكون هذا الحلف كذباً "[٤].

قوله: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾. (ألا) أداة تنبيه، قال الزمخشرى وهي مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي لإعطاء معنى التنبيه على تحقق مابعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقاً، كقوله (أليس ذلك بقادر) ولكونها في هذا المنصب من التحقيق. لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم، وأختها التي هي (أما) من مقدمات اليمين وطلائعها، أما والذي لا يعلم الغيب غيره، أما والذي أبكى وأضحك)[٥].

وأكد كونهم كاذبين بتصدير الجملة بأداة التنبيه التي تفيد تحقق وقوع مابعدها كما مر، و (إن) واسمية الجملة، وضمير الفصل (هم) الذي يدل على قصر الكذب عليهم، وذلك لئلا يدع مجالاً لتوهم المنافقين أن ذلك نافعهم يوم القيامة، فهم بالغون غاية الكذب حيث يكذبون مع عالم الغيب والشهادة ويحلفون عليه[٦].

---

(١) تفسير روح المعاني: ٢٨ / ٣٣.

(٢) سورة البقرة: ٥.

(٣) سورة الأنعام: ٢٨.

(٤) تفسير الفخر الرازي: ٢٩ / ٢٣٩.

(٥) تفسير الكشاف: ١ / ٣٣.

(٦) تفسير البيضاوي: ٢ / ٤٧٧.

الآية التاسعة عشر:

قال تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما بين سبحانه انحصار صفة الكذب فيهم بين أنهم مابلغوا إلى هذا الحال الشنيع إلا لأنهم سلموا أنفسهم للشيطان فاستحوذ عليهم وامتلك زمام أنفسهم فصرفها كما يريد وهل يرضى إلا بأشد الفساد والغواية.

التفسير التحليلي:

قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي غلب واستعلى أي بوسوسته في الدنيا. وقيل: قوى عليهم. وقال المفضل: أحاط بهم. ويحتمل رابعاً: أي جمعهم فقد غلبهم وقوى عليهم وأحاط بهم.

قال الراغب: الحوذ: أن يتبع السائق حاذيى البعير، أي أدبار فخديه، فيعنف في سوقه، يقال: حاذ الإبل يحوذها، أي ساقها سوقاً عنيفاً، وقوله ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ استاقها مستولياً عليهم(١).

وقال العلامة الشيخ أحمد الصاوي: هذا الفعل مما جاء على الأصل وخولف فيه القياس إذ قياسه استحاذ بقلب الواو ألفاً كاستعاذ واستقام(٢).

و(الشيطان) كل عات متمرد من الجن والإنس والحيوان وهو من شاط أي احترق أو من شطن أي بعُدَ، والشيطان محترق في النار يوم القيامة وهو بعيد عن رحمة الله تعالى.

وقد أطلق الشيطان في القرآن مراداً به واحداً من أربعة:

أحدها: إبليس وذريته، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾(٣).

---

(١) مفردات الراغب / حوذ.

(٢) حاشية العلامة الصاوي: المجلد الرابع ص ١٨٥.

(٣) سورة المؤمنون: آية ٩٧.

الثاني: دعاة الضلال من طغاة الجن والإنس، ومنه قوله تعالى: ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾[١].

الثالث: الكاهن، ومنه قوله تعالى ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ ﴾[٢] وقيل: هم رؤساؤهم في الكفر.

الرابع: الحيات، قيل: ومنه قوله تعالى في وصف شجرة الزقوم التي في جهنم أعاذنا الله منها ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[٣]، أي كأنه رؤوس الحيات[٤].

والمراد بالشيطان في الآية: إبليس لعنه الله.

قوله: ﴿ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ أي: لم يمكنهم من ذكره بما زين لهم من الشهوات[٥].

قال الإمام القرطبي: أنساهم أوامرهم في العمل بطاعته وقيل: زواجره في النهي عن معصيته[٦].

قوله:﴿ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ﴾. (أولئك) إشارة إليهم بالبعيد لبعدهم عن توحيد الله عز وجل، وقال صاحب التحرير والتنوير: لزيادة تمييزهم لئلا يتردد في أنهم حزب الشيطان[٧].

والحزب ورد في القرآن على وجوه:

الأول: بمعنى أصناف الخلائق في اختلاف المذاهب والملل والأديان ﴿ كُلُّ

---

(١) سورة الأنعام: آية ١١٢.

(٢) سورة البقرة: آية ١٤.

(٣) سورة الصافات: آية ٦٥.

(٤) انظر نزهة الأعين النواظر علم الوجوه والنظائر للإمام جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن ابن على بن محمد بن الجوزى ١٦٨ – ١٦٩ دار الكتب العلمية، وبصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى تحقيق عبد العليم الطحاوى ٣ / ٣٢٠ – ٣٢١ المجلس الأعلى للشيءون الإسلامية.

(٥) تفسير المراغى: ١٠ /٢٤.

(٦) تفسير القرطبي: ٩ / ٢٢٣.

(٧) انظر التحرير والتنوير: ٢٨/٥٥.

حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [١].

الثاني: بمعنى عسكر الشيطان ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾.

الثالث: بمعنى جند الرحمن ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ﴾ [٢].

والحزب هنا في الآية جماعة فيها غلظ وذلك لأنهم مجتمعون على محاربة النبي ﷺ.

قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ جئ بحرف التنبيه والاستفتاح (ألا) تنبيهاً على أهمية ما دخلت عليه وأنه مما يحق له الانتباه، وضمير الفصل (هو) لإفادة القصر وهو قصر ادعائي للمبالغة في مقدار خسرانهم.

وقد سبقت هذه المؤكدات للمبالغة في تحذير المسلمين فنسبة الخسران لحزب الشيطان أمر لا يمارى فيه أحد.

والخسران في البيع: انتقاص رأس المال، ويطلق الخسران على ما يخسره الإنسان في تجارته، وأعماله التي يظن أنها تفيده إذ لا ينتفع بها في الآخرة. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[١] وفي نفسه، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٣]، وفي أهله ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[٤].

وقد ورد الخاسر في القرآن على سبعة أوجه:

الأول: بمعنى العجز والعاجز ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾[٥] أي لعاجزون.

---

(١) سورة المؤمنون: بعض الآية ٥٣.

(٢) سورة المجادلة: ٢٢.

(٣) سورة الأنعام: ٢٠.

(٤) سورة الزمر: من الآية ١٥.

(٥) سورة يوسف: من الآية ١٤.

الثاني: بمعنى الغبن والخاسر: المغبون ﴿ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾[١] أي غبنوها.

الثالث: الخسران بمعنى الضلالة ﴿ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾[٢] أي ضل.

الرابع: بمعنى نقصان الكيل والميزان ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾[٣].

الخامس: بمعنى: ضد الربح ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[٤].

السادس: بمعنى العقوبة ﴿ وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾[٥].

السابع: بمعنى الهلاك ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٦][٧].

وهذه المعاني يوجد فيها شيء من التلازم والتداخل.

الآية العشرون:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السابقة حال المنافقين ومدى كذبهم على الله ورسوله وحلفهم بالباطل بيَّن أن عاقبة أمرهم الخسران ولأن من الخسران ما يكون في الدنيا ومنه ما يكون في الآخرة بين سبحانه أشد أنواع الخسران الدنيوي وهو المذلة والهزيمة.

التفسير التحليلي:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ استئناف بياني مسوق لبيان نوع من

---

(١) سورة الشورى: من الآية ٤٥.

(٢) سورة النساء: من الآية ١١٩.

(٣) سورة الرحمن: من الآية ٩.

(٤) سورة المنافقون: من الآية ٩.

(٥) سورة الطلاق: من الآية ٩.

(٦) سورة الأعراف: من الآية ٢٣.

(٧) بصائر ذوى التمييز ٢/ ٥٨٣ :٥٨٤.

الخسران الذي قضى به على حزب الشيطان فيكون بمثابة بدل البعض من مضمون جملة ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾. أو مسوق لتعليل ما قبله من خسران حزب الشيطان.

قوله:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ اسم إشارة للتنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما بعد اسم الإشارة من الحكم بسبب الوصف الذي قبل اسم الإشارة مثل ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾.

﴿ ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ أي في جملة من هو أذل خلق الله لا ترى أحداً أذل منهم.

وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ ولم يقل: أولئك هم الأذلون لما يفيده حرف الظرفية من أنهم كائنون في زمرة القوم الموصوفين بأنهم أذلون، أي شديدو المذلة – كما يشير إليه مجيئه على صيغة أو فعل التفضيل – وذلك ليعي السامع أنهم داخلون في كل جماعة موصوفة بهذا الوصف وهذا أبلغ من أن يقال: أولئك هم الأذلون[1]. وكانوا أذل خلق الله، لأن ذل أحد الخصمين يكون بحسب عز الخصم الثاني، فلما كانت عزة الله تعالى غير متناهية كانت ذلة من ينازعه غير متناهية أيضاً، ومن ثم لا يكون في الموجودات من هو أذل منه.

الآية الحادية والعشرين:

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾

مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن بيَّن سبحانه أن المنافقين نسوا ذكر الله وبعد أن بيَّن أن صفقتهم خاسرة لأنهم اشتروا الدنيا وباعوا الآخرة. وبيَّن أن سبب خسرانهم أنهم عادوا وشاقوا الله ورسوله بيَّن هنا أن المولى عز وجل كتب عليهم الذلة إذ أثبت أن العزة والغلبة لله ولرسله وأن الذلة لأعدائه.

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٨ / ٥٦.

سبب نزول الآية:

رُوى عن مقاتل: (لما فتح الله تعالى مكة والطائف وخيبر وما حولها للمؤمنين قالوا: نرجو أن يظهرنا الله تعالى على فارس والروم فقال عبد الله بن أبي: أتظنون أن الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها، والله إنهم لأكثر عدداً وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك، فنزلت ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾[1].

التفسير التحليلي:

قوله ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ ﴾ أي قضى الله وحكم وقضى وقدر.

قوله:﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ قال الزجاج: غلبة الرسل على نوعين من بعث منهم بالحرب فهو غالب بالحرب، ومن لم يؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة[2].

وغلبة رسله تعالى إنما تكون بنصره ومعونته، لأنهم نصروا الله تعالى حين صدقوا وصبروا وأخلصوا في تبليغ ما أمروا به من لدنه عز وجل.

وهذا يشير لكل من تأسى بالأنبياء عليهم السلام وصابر وثابر على الحق والإخلاص في رفع لواء الكلمة العليا.. كلمة الله عز وجل.

فإن قيل: كتب الله الغلبة لدينه ولرسله وللمؤمنين يقضى بألا يتخلف ذلك على مدى الأعصار، ونحن نرى المسلمين اليوم في تفرق وذلة وصغار فكيف ذلك؟

يجيب على هذا السؤال د. أبو بكر الباز رحمه الله فيقول: "إن الله تعالى حين قضى أن تكون الغلبة للمسلمين جعل ذلك مشروطاً بالتزامهم منهجه عز وجل كما هو ظاهر الآيات السابقة، فشوكتهم من استقامتهم على هذا الدين،

---

(١) تفسير القرطبي: ٩ / ٢٢٤، وروح المعاني ٢٨ / ٣٤.

(٢) تفسير البغوي: ٤ / ٣١٢.

وإن غفلوا عنه، وجعلوه وراء ظهورهم وتنكبوه، وأقبلوا على الدنيا إقبال أهلها، ومن ثم استضعفوا واضطهدوا وهانوا على الناس، وذلوا في الأرض. وهم إذ يكونون على هذا الحال من الضعف والذلة يدعون الباطل إلى الظهور فيبدو كأنه عال غالب، وتعميه قوته وغطرسته فيبالغ في البطش والتنكيل، ويقبل بغيظه ونار حقده على الحق فيسفك دمه ويلوى عنقه، ويحاول أن يطمسه. ولا خلاص لهم من ذلك إلا بالرجوع إلى منهجه تعالى والعض عليه بالنواجذ، والعمل به كما أمرهم"[١].

قوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ جملة تعليلية للجملة السابقة فالله سبحانه له الغلبة لأنه القوى العزيز.

والقوى: بالغ القدرة.

والعزيز: المانع للإنسان من أن يُغلب وهو الذي لا يُقهر.

قال الراغب: العزه حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب من قولهم: أرض عزاز: أي صلبة، وتعزز اللحم: اشتد. وعز كأنه حصل في عزاز يصعب الوصول إليه، والعزيز الذي يقهر ولا يُقهر[٢].

وقال الإمام الغزالي: هو العزيز المطلق الحق لا يوازيه فيه غيره[٣].

وجاء اسم العزيز بعد القوى تأكيداً له ودفعاً لتوهم وجود القوة مع إمكان الغلبة. بأن يكون هناك من هو أقوى.

وفي الآية التفات من الغيبة في قوله ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ ﴾ إلى التكلم في قوله ﴿ لَأَغْلِبَنَّ ﴾ ثم إلى الغيبة في قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

وعبر عن الكتابة بالغيبة لأنه كان منذ الأزل قبل أن يخلق الله تعالى

---

(١) تفسير سورة المجادلة: د. أبو بكر الباز ص ١٥١.

(٢) مفردات الراغب: عز، بتصرف.

(٣) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: للإمام أبي حامد الغزالي ٥٠، ٥١ دار الكتب العلمية.

الأكوان والناس.

ثم عدل إلى التكلم في الحديث عن الغلبة لإبراز شأن ذاته العلية الموصوفة بكل كمال، والمتنزهة عن كل نقص، للإشعار بأن من كان كذلك فغلبته وهزيمة خصمه أمر محقق.

ثم عدل إلى الغيبة لأن الكلام في تقرير ماينبغى أن يتصف به الإله الحق، كأنه قال: والإله الحق من يتصف بكمال القوة والعزة، ولا يتصف بشيء من ذلك سوى الله ﷻ.

الآية الثانية والعشرون:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

لما بين الله سبحانه في الآية السابقة أن القوة والعزة لله وحده، وأنه القوى على نصر رسله لا يغلب على مراده، بين في هذه الآية أنه لا يجتمع في قوم الإيمان بالله واليوم الآخر وموادة أعداء الله ورسوله، فإيمان المؤمنين يفسد بموادة الكافرين، ومن كان مؤمناً حقاً لا يوالى كافراً، ومن أحب أحداً امتنع أن يوالى عدوه.

سبب نزول الآية:

ورد في سبب نزول الآية الكريمة عدة روايات:

أولها: قال ابن جريج: حدثت أن أبا قحافة سب النبي ﷺ فصكه أبو بكر ابنه صكه فسقط منها على وجهه، ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: " أو فعلته، لا تعد إليه " فقال: والذي بعثك بالحق نبياً لو كان السيف منى قريباً

لقتلته[١].

ثانيها: قال ابن مسعود: نزلت في أبي عبيدة بن الجراح ؛ قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد. وقيل: يوم بدر. وكان الجراح يتصدى لأبي عبيدة، وأبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتله ؛ فأنزل الله حين قتل أباه[٢] ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ الآية.

قال الواقدي[٣]: كذلك يقول أهل الشام. ولقد سألت رجالا من بنى الحارث بن فهر فقالوا: توفي أبوه من قبل الإسلام.

ثالثها: قيل: نزلت في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر.

رابعها: قيل: نزلت في عمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر.

وخامسها: قيل: نزلت في على وحمزة قتلا عتبة وشيبة والوليد يوم بدر.

وسادسها: قيل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة لما كتب إلى أهل مكة بمسير النبي ﷺ هو وأصحابه عام الفتح فبين أن الإيمان يفسد بموالاة الكفار، وإن كانوا أقارب.

سابعها: قيل: إنها نزلت في من كان يصحب السلطان وعن عبد العزيز بن أبي داود أنه لقى المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها[٤].

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٧٧ والسيوطي في أسباب النزول ص ٧٥٤ من رواية ابن المنذر عن ابن جريج.

(٢) ذكره السيوطي في "أسباب النزول" ص٧٥٣ من رواية أبن أبي حاتم والطبرانى. والحاكم في مستدركه.

(٣) هو محمد بن عمر، أبو عبد الله الشهير بالواقدى، عالم فاضل، صنف في التفسير، توفي عام ٢٠٧ هـ. انظر طبقات المفسرين للأدنوى / ٢٩.

(٤) انظر تفسير القرطبي: ٩ / ٢٢٤: ٢٢٥. والبحر المحيط : ٨ / ٢٣٧ : ٢٣٨. وتفسير ابن كثير: ٤ / ٣٢٩. وتفسير مفاتيح الغيب: ٢٩ / ٢٤٠. وتفسير البغوي: ٤ / ٣١٢.

وهناك روايات أخرى أعرضت عن ذكرها لأن أهل السير والتفسير أعرضوا عنها وقالوا عنها منكرة، والآية المذكورة تشمل كل الأمور المذكورة بعمومها؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

التفسير التحليلي:

قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾.

(لا) نافية، والمنفي وجدان قوم يؤمنون بالله يجمعون مع إيمانهم موادة الكافرين. والمراد بنفي الوجدان نفي الموادة بمعنى: لا ينبغى أن يتحقق ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال.

قال الإمام الرازي: "من أحب أحداً امتنع أن يحب مع ذلك عدوه وهذا على وجهين:

أحدهما: أنهما لا يجتمعان في القلب، فإذا حصل في القلب وداد أعداء الله، لم يحصل فيه الإيمان، فيكون صاحبه منافقاً.

والثاني: أنهما يجتمعان ولكنه معصية وكبيرة، وعلى هذا الوجه لا يكون صاحب هذا الوداد كافراً بسبب هذا الوداد، بل يكون عاصياً في الله.

فإن قيل: أجمعت الأمة على أنه تجوز مخالطتهم ومعاشرتهم فما هذه المودة المحظورة؟ قلنا: المودة المحظورة هي إرادة منافسة ديناً ودنيا مع كونه كافراً، فأما ماسوى ذلك فلا حظر فيه[1].

والخطاب في الآية للنبي ﷺ، أو لكل أحد يصلح له من المسلمين.

وجئ بصيغة المفاعلة (يوادون) التي تقتضى طرفين اعتباراً بأن شأن الود أن يجلب وداً من المودود للواد.

ويدخل في الموادة الصحبة، والمسامرة، وإظهار التحبب .

---

(١) تفسير الرازي: ٤ / ٢٤٠.

وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: "اللهم لا تجعل لفاجر عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت[1] ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾.

(مَنْ حَادَّ) المحادة: المعاداة، فمن عاد الإسلام وأعلن الحرب على المسلمين لأجل إسلامهم لا لموجب عداوة دنيوية. فلا مودة له ولا بربه.

ومن لم يعاد الإسلام وانتحى جانب ماعليه من الديانة يقوم عليها غير مسئ لغيره فلا بأس ببره، ومن ذلك الوفاء بعهده، والتصدق عليه، وعيادته، وقبول ولائمه.

قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ ﴾[2].

وقد أخذ العلماء من هذه الآية أن من كان فيه خصلة من النفاق أو ضرب من الفسق والتعدي على حدود الله، أو عُرف عنه بأنه يستخف بالصالحين ويسخر منهم، ولا يعبأ بأوامر الدين ونواهيه تجب مجافاته، وعدم الاكتراث أو الاستعانة به في أمر من أمور الدنيا، بل إن بعضهم قال: " من صح إيمانه وأخلص توحيده فإنه لا يأنس إلى مبتدع، ولا يجالسه ولا يؤاكله

---

(١) أخرجه على القاري في الأسرار المرفوعة: (١٧١). وأخرج ابن حجر في الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف (١٦٦). وابن كثير في تفسيره: ٨/٨٠. والسيوطي في الدر المنثور ١٨٦/٦: "اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي نعمة". وأخرج العجلوني في كشف الخفاء ٣٩٦/١. والشوكاني في الفوائد المجموعة ٢١١. والزبيدي في اتحاف السادة المتقين ١٤٨/٦. والعراقي في المغنى عن حمل الأسفار ١٨٦/٦: "اللهم لا تجعل لفاجر عندي عليا".

(٢) سورة الممتحنة: الآيات ٨، ٩.

ولا يشاربه ولا يصاحبه، ويظهر له من نفسه العداوة والبغضاء، ومن داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن، ومن تحبب إلى مبتدع يطلب عز الدنيا أو عرضاً منها أذله الله تعالى بذلك العز، وأفقره بذلك الغنى، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله تعالى نور الإيمان من قلبه، ومن لم يصدق فليجرب "[١].

قوله: ﴿ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ هذه مبالغة في الأمر وتشديد في الزجر وتتضح المبالغة في المنع من وجوه:

أولها: ما ذكر أن هذه المودة مع الإيمان لا يجتمعان.

وثانيها: قوله ﴿ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ والمراد أن الميل إلى هؤلاء أعظم أنواع الميل، ومع هذا فيجب أن يكون هذا الميل مغلوباً مطروحاً بسبب الدين. [٢]

وقدم الآباء لأن طاعتهم في باب الموادة من أوجب الواجبات إن كانا مؤمنين، وكذلك إن كانا كافرين لا يحادان الله ورسوله، أما إن بدت منهما العداوة والبغضاء للإيمان وأهله والعمل على تقويضه فلا طاعة لهم ولا مودة قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

وثنى بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب، وثلث بالأخوان لأنهم ألزم في التعاضد، وختم بالعشيرة لأن بها التناصر والمقاتلة، فجاء الترتيب بنفي الأهم فالأهم على التدلي من الأعلى إلى الأسفل.

قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾: (أولئك) إشارة إلى القوم

---

(١) تفسير روح المعاني: ٢٨ / ٣٥.

(٢) تفسير مفاتيح الغيب: ٤ / ٢٤٠.

الموصوفين بالإيمان بالله واليوم الآخر وعدم الموادة لمن حاد الله ورسوله.

والكتابة هنا معناها: الخلق والتثبيت، أي أثبت التصديق في قلوبهم فهي مؤمنة خالصة.

وذكر القلوب لأنها موضع الإيمان(١).

قوله: ﴿ وَأَيَّدَهُم ﴾ أي قواهم ونصرهم ﴿ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ الضمير إما عائداً إلى الله تعالى، أو إلى القرآن فقد سماه الله تعالى بذلك في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (٢). أو إلى الإيمان، أو إلى جبريل، والروح من أسمائه عليه السلام، كما في قوله ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾(٣).

(من) إما ابتدائية، والمعنى: أيدهم بعناية ولطف وتوفيق من عنده. أو بيانية والمعنى: أنه في نفسه روح لحياة القلوب.

وقوله ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا (جنات) جمع جنة.

والجن في اللغة: الستر، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ (٤)، وكل ما اشتق منه له حظ من هذا المعنى، وذلك كالجنة، والجن، والجنين.

وشرعاً: اسم لدار الثواب لمن أطاع الله عز وجل.

وفي الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: " قال الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر). قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم، "فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة

---

(١) تفسير البغوي: ٤ / ٣١٣.

(٢) سورة الشورى: آية ٥٢.

(٣) سورة الشعراء: آية ١٩٣.

(٤) سورة الأنعام: آية ٧٦.

أعين")[١].

والخلود: قال الراغب: (هو تبري الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود كقولهم للأثافي [٢] خوالد، وذلك لطول مكثها، لا لدوام بقائها.. وأصل المخلد الذي يبقى مدة طويلة، ومنه قيل: رجل مخلد: لمن أبطأ عنه الشيب، ثم استعير للمبقى دائماً، والخلود في الجنة: بقاء الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها)[٣].

قوله: ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما أفاض عليهم من آثار رحمته العاجلة والآجلة[٤]، والمعنى أن المولى ﷻ رضي عنهم وقبل أعمالهم فأغدق عليهم رحمته العاجلة والآجلة فأدخلهم الجنات.

قوله:﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ أي فرحوا بما آتوه عاجلاً وآجلاً. قال الشيخ المراغي: "أنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى عوضهم بالرضا عنهم وارضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم".

قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ﴾ أشار إليهم بالبعيد لبعد منزلتهم. وفي إضافة الحزب إلى الله تشريف لمن انتمى إلى هذا الحزب.

قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فيه قصر الفلاح على حزب الله بتعريف الطرفين (حزب الله) و (المفلحون) وتأكيد هذا القصر بضمير الفصل (هم)، والفلاح: الظفر بالسعادات في الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة السجدة ١٤٥/٦. وصحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٤٨٠/٤ - ٤٨١.

(٢) جمع أثفية، وهي الحجارة التي تنصب، وتجعل القدر فوقها لطهي مافيها.

(٣) مفردات الراغب / خلد.

(٤) تفسير أبو السعود: ٥ / ٧٠٠.

وفي هذه الآية أربع نعم أنعم الله بها على المؤمنين:

أولها: كتب الإيمان في قلوبهم.

ثانيها: تأييد بروح منه.

ثالثها: إدخالهم الجنات.

رابعها: نعمة الرضوان، وهي أتم النعم وأعلاها.

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا ونبينا محمد ﷺ سيد المرسلين.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.
ثانياً: كتب التفسير وعلوم القرآن.
١ – أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي – دار الفكر.
٢ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم القاضي أبي السعود، دار إحياء التراث العربي.
٣ – أسباب النزول للواحدي لأبي الحسين على بن أحمد بن محمد بن على الواحدي النيسابوري، شرح وتحقيق، رضوان جامع رضوان – مكتبة الإيمان.
٤ – أسباب النزول للإمام السيوطي، تحقيق: الدكتور محمد محمد تامر، دار العنان للطباعة والنشر والتوزيع.
٥ – أنوار التنزيل وأسرار التأويل القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي – دار الكتب العلمية.
٦ – البحر المحيط للعلامة محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي – دار الكتب العلمية.
٧ – بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق الأستاذ محمد على النجار – طبعة المجلس الأعلى للشيءون الإسلامية – ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م.
٨ – تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل) للإمام محيى السنة، إعداد وتحقيق: خالد عبد الرحمن العك وآخرون – دار الزهراء للنشر والتوزيع – الرياض – دار المعرفة للطباعة والنشر – الطبعة الخامسة ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.
٩ – البيان في عد أي القرآن للإمام أبي عمرو الداني الأندلسي، تحقيق الدكتور / غانم قدوري الحمد، الطبعة الأولى، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق – الكويت.
١٠ – التحرير والتنوير للعلامة محمد الطاهر بن عاشور – الدار التونسية للنشر.
١١ – تفسير الرازي المشتهر بت (التفسير الكبير) و (ومفاتيح الغيب) للإمام محمد الرازي فخر الدين بن العلامة ضياء الدين عمر – دار الفكر.

١٢ – تفسير القرآن العظيم للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي طبعة عيسى البابي الحلبي.
١٣ – تفسير القرطبي المسمى (الجامع لأحكام القرآن) للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي – دار الغد العربي.
١٤ – تفسير سورة المجادلة دراسة تحليلية للدكتور / أبو بكر السيد الباز – مطبعة دار الحكمة بالمنصورة ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م.
١٥ – تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن على بن محمد الشوكاني، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م – دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع.
١٦ – تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل) لعلاء الدين على بن محمد بن ابراهيم البغدادي الشهير بالخازن، الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ – ١٩٥٥ م – مطبعة مصطفي البابي الحلبي بمصر.
١٧ – تفسير المراغي لأحمد مصطفي المراغي – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
١٨ – التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للدكتور / وهبه الزحيلي – دار الفكر.
١٩ – جامع البيان في تفسير القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري – دار الريان.
٢٠ – حاشية الشهاب المسماة (عناية القاضي وكفاية الراضي) على تفسير البيضاوي – دار إحياء التراث العربي.
٢١– حاشية محيى الدين شيخ زاده على البيضاوي – دار إحياء التراث العربي.
٢٢ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة محمود شكري الألوسي البغدادي – المركز الإسلامي للطباعة والنشر.
٢٣ – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للعلامة أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي – دار المعرفة.

٢٤ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد – دار الكتب العلمية.

٢٥ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضع محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة – بيروت – لبنان.

٢٦ – مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهانى – دار الفكر.

٢٧ – نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر للإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزي – دار الكتب العلمية.

ثالثا: كتب السنة وشروحها:

٢٨ – سنن ابن ماجه للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني بن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – طبعة دار الريان للتراث.

٢٩ – سنن أبي داود سليمان بن أشعث السجستاني، محمد على السيد – حمص ١٩٨٦ م.

٣٠ – سنن الترمذي للحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي – دار الحديث.

٣١ – سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية – بيروت – الطبعة الثانية ١٩٨٦ م.

٣٢ – صحيح البخاري للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن برد زبة البخاري الجعفي – طبعة الشعب.

٣٣ – صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري – دار الحديث.

ونسخة أخرى بشرح الإمام محيى الدين أبي زكريا بن شرف بن مري الحزامي النووي – دار الريان للتراث.

٣٤ – فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني – مكتبة الرياض.

٣٥ – الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف بذيل الكشاف للإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني – دار المعرفة.

٣٦ – المستدرك على الصحيحين للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي – دار المعرفة.

٣٧ – المسند للإمام أحمد بن حنبل الشيباني – المكتب الإسلامي – دار صادر – بيروت – لبنان.

رابعاً: كتب العقيدة:

٣٨ – المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للإمام أبي حامد الغزالي – دار الكتب العلمية.

خامساً: كتب الفقه:

٣٩ – بداية المجتهد ونهاية المقتصد للعلامة محمد بن أحمد بن رشيد القرطبي، تحقيق: أبي عبد الرحمن عبد الحكيم بن محمد – المكتبة التوفيقية.

سدساً: كتب الإعراب والقراءات:

٤٩ – املاء مامن به الرحمن لأبي البقاء العكبري – دار الكتاب العلمية.

٤١ – النشر في القراءات العشر للحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري – دار الفكر.

سابعاً: كتب البلاغة:

٤٢ – جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للسيد المرحوم بإذن الله / أحمد الهاشمي – دار الفكر.

٤٣ – دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني تصحيح السيد / محمد رشيد رضا، الطبعة السادسة – محمد على صبيح ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م.

ثامناً: معاجم اللغة:

٤٤ – لسان العرب للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري – دار صادر – بيروت – لبنان.

تاسعاً: كتب التراجم:

٤٥ – طبقات المفسرين للإمام أحمد بن محمد الأدنوي، تحقيق سليمان بن صالح الحزي – الناشر مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة.

* * *